قيرغيزستان

جوهرة آسيا الوسطى

م. أحمد بن نايف السديري

قيرغيزستان

جوهرة آسيا الوسطى

م. أحمد بن نايف السديري

اسم الكتاب : قرغيزستان , جوهرة آسيا الوسطى .
الكاتب : م. أحمد بن نايف السديري .
رقم الإيداع : 1445/315
ردمك :978-603-04-7059-4

الحمد لله مجيب الدعوات، وقاضي الحاجات، ومتمم الخيرات، خالق الأرض والسماوات. والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، ونوراً للمهتدين، وتبياناً للمتبصرين، وعلى آله وصحبه ومن نشر دعوته وأقام حجته على الهند والسند والصين، ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد

قال الشاعر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا،، وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة،، وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن من نعم الله على الإنسان، معرفة الصالحين من الندماء والخلان، ومصاحبتهم بين أكناف الأوطان، والرحلة معهم إلى الشرق والغرب في البلدان. وقد أنعم الله علينا أن نذهب في رحلة شبابية ماتعة إلى جوهرة آسيا الوسطى، قيرغيزستان. بلاد الكرم والجود والخيول والفرسان. وتخلل هذه الرحلة معرفة جزء يسير من هذا البلد الإسلامي الذي كان من جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً. مما حفزنا لتكرار هذه الرحلة في السنة التالية.

وقد كنت فيما مضى من السنون، لا أفارق كاميرتي الفوتوغرافية من نوع كانون. ولكنني مع تقدم الزمن لم أعد أصطحبها، ولما رأيت الزملاء أثناء الرحلة يصورون، بالسامسونج وبالآيفون، ومنهم من كان يصور بالدرون، فقد قررت أن أختبر مساراً آخر لتوثيق هذه الرحلة. وهو (درب الكتابة)، وما بين الظفرين هو كتاب قيّم للأستاذ رائد العيد، كان أحد المحفزات الرئيسية لهذا المسلك. ومن المحفزات أيضاً كتب الرحلات، لا سيما "الطريق إلى مكة" لمحمد أسد رحمه الله، وما كتبه الدكتور محمد بن ناصر العبودي رحمه الله من رحلات في شتّى الديار

الإسـلامية، بما فيها كتاب قيّم عن زيارته إلى قيرغيزسـتان بعد بضـعة أشـهر من استقلالها من الاتحاد السوفييتي. كما أن قلّة المؤلفات العربية حول قيرغيزستان كان أحد الحوافز. كما أني حالياً في المرحلة النهائية من دراسـتي لمرحلة الدكتوراة في هندسـة الطيران والفضـاء، واعتبرت أن هذا التأليف قد يكون تمريناً جيّداً لعضلات العقل وأفكار الأصابع.

والحمد لله على التمام

م. أحمد بن نايف السديري
1444/12/10هـ

عقد العزم

فقد كنا في رحلة ماتعة قبل ٣ سـنوات إلى صـلالة، جبنا فيها مع الصـحبة الصالحة شطآنها وجباله.

ومنذ تلك الأيام، والرفقة تمنّي النفس برحلة مثلها أو أحسـن منها، ولما كان تكرار الرحلـة عنـد بعضـــنـا حلمـاً أو بعض حلم، عقـد العزم عليهـا أولوا الرأي والحزم، وحددوا تاريخها بالشـــهر واليوم، ثم أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتقوا لهذه الرحلة من خف ظله وثقل معدنه من الأصـحاب، فلم ألبث إلا برســـالة تفيد ترشحي للذهاب مع الشباب.

وقد اغتبطت بهذه الرحلة والترشـــيح، وأكدت مقعدي عليها بعد التهليل والاستخارة والتسبيح، وعقدت العزم على حزم الأمتعة والأغراض، وحينما وصلت إلى حائل، اكتشـفت أنني نسـيت جوازي في الرياض. وقبل الرحلة بسـاعات جاءني الجواز من أخي عليّ، والحمد لله المسهّل الأعلى العليّ.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشـــرين من ذي القعدة لألف وأربعمئة وثلاثة وأربعين من هجرة المصـــطفى العدناني، شـــدّت الرحال على طيران دبي، واجتمع الركب في صـــالة الركاب، تاركين وراءهم همومهم وأعمالهم ومكاتبهم، وأحبابهم وأولادهم وأقاربهم، ممنين النفس برحلة سعيدة، يعودون بعدها بتجربة جديدة.

وكان العزم على قيرغيزســـتان، أو بلاد القرقيز. وهي من بلاد ما وراء النهر، التي كنّا نسـمع عنها في كتب التراجم والسـير. التي دخلها قتيبة بن مسـلم الباهلي، وحدثت فيها أكبر معركة للمســلمين مع الصـينيين، في عام 133هـــ وهي معركة طلاس، وانتصـر فيها المسلمون، وأسـروا من الصـينيين من نقل إلى بغداد صـناعة القرطاس.

المطار السوفييتي

هبطنا إلى مطار العاصمة بشكيك قبيل شروق الشمس. لمسنا من تصميم المطار شيئاً من معالم الاتحاد السوفييتي الذي كان يحكم البلاد بالأمس. وأخذ كلٌّ منّا حقيبته وأغراضه. وكان من الركب من تكفل بأخذ أغراض القهوة والشاي، ومنا من أخذ سجادة، ومنا من أخذ كرسياً، وبعضهم جاب أرزاً وبهاراً، وكاد بعضنا أن يحضر خيمة أو مظلة، ولكن منّ الله علينا بوجود من تكفّل بذلك من أهل البلد.

وحينما اجتمعنا خارج صالة المطار، كان أبو عواطفٍ يبحث عن حقيبته باحتيار ، وفيها من الثياب والبدلات من كل شكل ولون، ولكنها ضاعت كأنها مقيط ورشاه، وعاد محمد بخفّي حنين، ولكن الركب كان لديهم من الهدوم ما يناسب ذوقه ومقاسه، فتمضى محمدٌ بأم شوشة حتى أتته المنقوشة.

وكان في استقبالنا مرشد الرحلة أبو مسلم، وهو من طلبة العلم المجدين، الذين يجيدون معرفة العربية وعلومها، وتاريخ البلد وسلومها، والأماكن الجميلة بأنهارها وجبالها وغيومها. فكان لنا نعم الصاحب، جعل من رحلتنا بفضل الله أحلى التجارب.

وقد أعدّ لنا أبو مسلم باصاً فريداً من نوع مرسيدس، يسع الركاب جميعاً، بقضهم وقضيضهم، وبحقائبهم وحاجياتهم. وإذا كانت النفوس كباراً، تعبت في مرادها الأجسامُ، أو أقصد، الضيق بالصدور، أو لعمرك ما ضاقت بلادٌ على امرءٍ، ولكن أحلام الرجال تضيق.

وتوجهنا من المطار إلى العاصمة، والعاصمة اسمها بيشكيك، وقال الشيخ العبودي رحمه الله أن هذا الاســم يطلق على الملعقة التي يحرّك فيها لبن الخيل. وأن قوماً من القيرغيز الرحّل أقاموا في تلك الناحية فترة من الزمن، وحينما ارتحلوا منها قالت إحدى نسائهم أنها نسيت البيشكيك في تلك المنطقة، فأصبح من حينها اســماً لها. وحطت رحالنا في مطعمٍ تركيّ فيه من الفطائر والأجبان، ما تســر به البطون وتلذ به الأعيان. أفطرنا وكلنا أملٌ في فندق ترتاح فيه الأجفان، ولكن توقيت دخولنا لم يحن حتى الآن. فذهبنا إلى بقالة كبيرة، لنشتري الأغراض والحاجيات، خصوصاً ما يخص الطبخ والنفخ والحركات. وكان الذي يدير هذه الأمور بتنظيم، هو شيخنا الطبّاخ أبو إبراهيم، المشهور عنه معرفة الموازين والمقادير، بتبهير أو من دون تبهير.

ثم ذهبنا إلى نهر الآمدين، وانتظرنا تحت المظلة نائمين ومفتحين، تلفحنا الشمس تارة، وتظللنا الغيوم تارتين، ومن عجيب ما رأينا في النهر، شدّة شبابها وقوتهم في حمل المظلات والستُر، صعوداً ونزولاً مع التراب والحجر، فعلمنا أن أهل البلد أولو بأسٍ وقوة، وخيلٍ ورجل وفتوّة، كيف لا، وهم أجداد الترك والمغول، وهم يشــربون من حليب الخيول، ويأكلون لحومها في الشروق والأفول.

وقد لبثنا على تلك الحالة مستسلمين، حتى أتانا الفرج، وقيل لنا ادخلوا إلى الفندق آمنين، فاحتلّ كلٌّ منا موقعه، فبعضنا حصل على سرير وبعضنا نام على

الكنب، وتشارك بعض الرجال سريراً واحداً، متصافين على عدم الشك والريب. وارتاحت الأعين والأجساد بعد قطعة العذاب، والحمد لله الرازق الوهاب.

وبعد أن استرحنا بساعتين، جاءنا النداء للغداء في مطعم الفندق إن كنّا آكلين. فطلبنا لحم بقرٍ مشوي، وأردنا كذلك أن نجرّب لحم الخيول، فقد قيل أن له وللبنها فوائد كبيرة، والله أعلم بالسريرة.

نهر الآمدين

ولما جاء العصر خرجنا إلى مطل النهر الجميل، وصنع لنا أبو عواطف القهوة بالبنّ والهيل. وتبادلنا أطراف الحديث، وزارنا شيخ قرقيزي لطيف. وبينما نحن نتحادث ونمتع الأنظار، تفاجئنا بقطيع من الأبقار، يقترب ويقف عند أوتاد قريبة بانتظار. فإذا بها تنتظر أن يحلبها راعيها، وجرّب بعضنا أن يساعد الراعي في حلب الضرع، فإذا بها مهمة صعبةٌ تستوجب العلم والمهارة في الأصل والفرع.

وحينما ساح ظل العود حزّة عشا الطير، قفلنا عائدين إلى أكنّتنا، وصلينا العشاء جمعاً وقصراً قبل انتهاء الأذان، وخلد كلٌّ منّا إلى سريره من دون عشاء يذكر، إلا من تفاحٍ وشيءٍ من المكسرات قليل، والحمد لله القائل {وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ} [الأَنعَامِ: ٦٠]. والقائل {وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} [الرُّومِ: ٢٣]

وحينما أحيانا الله بعد أماتنا وله الحمد، وبعد صلاة الفجر، نادونا أبا عواطف وأبا بسام، بأن من يوجعه راسه ترى الهيل طبه،، وليا تقهوى كيفه الراس طابي. واختاروا للشباب أحد الأنواع العشرة التي أحضروها من الديار، وطبخوها بدلة زرقاء كأنها شواطئ البحار. فاجتمعنا على البلكونة المقابلة لهدير النهر، ومع أن الجو كان (نسريتن يا كليب صلفن مهبّه، إلا أن دفء المشاعر كان يغني عن النار لو حنا شعمناها).

وقبل الساعة الثامنة، كان موعد الإفطار في مطعم الفندق، ولهم أسلوب عجيب في الأوقات، حيث يحددون لكل مجموعة وقتاً محدداً للدخول، وإن فاتك الوقت فليس لك نصيب بالمشروب والمأكول. وكان إفطاراً أوربياً بارداً، حصل على تقييمٍ قليل، وطالبنا الطباخين لاحقاً بالتعديل.

ومن الأمور التي اقترحها الأمير، تقسيم الشباب إلى ثلاث مجموعات بأسماء برامج الرؤية، وهي نيوم وطويق والقدية. وكان الهدف أن يتم تداول المهام الرئيسية، وأن يتم تقييم أداء الفرق بصورة يومية. واعترض على ذلك القرار بعض أصحاب الموارد المادية، من أصحاب المعاميل والجفان والقدور الراسيات. فهم قد جهزوا عدتهم لاستلام المهمة كاملة، والمسؤوليات لا تجزّأ. فاستمرينا على هذا التقسيم يوماً وليلة فقط، ووضعت الحروف على النقط.

وبعدها انطلقنا إلى وادي النهر البارد، أو ما يسمى شنكرشاك، وهو واد يلزم لوصوله سلوك طريق متعرج ترابي مرتفع، كأنه السلم والثعبان، وهو ممتع في النهار لمن يحب هذه الطرق، ومخيف في الليل لمن في سيارته شيءٌ من الرجة والزوغان. وعند الصباح يحمد القوم السريان.

صعود الحبال

ال (زيبلاين)

وصلنا إلى مركز العربات السلكية، أو ما يسمى التلفريك، وهو في موسم الثلج يرفع البشر إلى أحد القمم القريبة، ثم يعودون متزحلقين بزلاجاتهم، و لكنهم في هذه المواسم يجعلون زحليقة سلكية يدوية، يسمونها زيبلاين، ولاحظنا أن العاملين هناك كلهم من الأصول الروسية، فيبدوا أنهم مسيطرون على تلك الأعمال. وهم يربطون لكل واحد حبالاً تناسب قدره ووقاره، فبعضنا حبلين ولا ثلاث حبال، أو كما قالوا (هو يحسب الحب دوندورمه،، ولا حلاوه ثلاث اشكال).

ومع بداية الانزلاق، تطلع كلية الرجل إلى حنجرته، وتتسارع سرعته، حتى يصل إلى المكابح الموجودة عند النهاية. واستمتعنا بذلك الهبوط، وبعضنا صور نفسه بكاميرة وبعضنا بطائرة وبعضنا بجوال، أما أبو دينا فقد انكسر جواله على المكابح عند الهبوط، وكان أمراً مقدراً كتبه الله، والحمد لله على كل حال. فاشترى لاحقاً جوالاً مستعملاً من بشكيك. وقد قال المفسرون أنه إذا ذكر الله الخبر لرسوله صلى الله عليه وسلم فيقول "وما أدراك" وإذا لم يخبره فيقول "وما يدريك".

وبعد هذه الفعالية الشيّقة توجهنا إلى أحد الأنهار القريبة، واستأجرنا أحد الجلسات التي يجري من تحتها نهر صغير أو جدول. وأحضر لنا أبو مسلم دجاجاً مشوياً مع الخبز، وأعد لنا أبو عواطف وأبو بسام القهوة والشاي والحبشتكات. وأعد لنا زياد لعبة خفيفة، والتقط صورة لطفلة قرغيزية ظريفة. ثم اعتلى بعض الشباب ظهور العاديات، وأخذوا جولة مدتها ساعتين أو ثلاث ساعات، عبروا فيها الأنهار وارتقوا الجبال وقطعوا الغابات، فكانت البداية الحقيقية لقصة بمشيئة الله ستستمر، وهي قصة فرسان "سوسمر"، والتي سيأتي ذكرها لاحقاً إن شاء الله وأمر.

وحينما دقت ساعةٌ بتوقيت المعدة، جمع أبو إبراهيم العدة، وأوعز لنا بالتجهيز والتقطيع، وبتبريد الكولا على مجرى النهر السريع، وما هي إلا ساعة، حتى كانت الكبسة الممتازة جاهزة. والتي بعدها صدر قرار اللجنة الاستشارية، باعتماد الطبخ للوجبات الرئيسية، والحمد لله على ألطافه الخفية والجليّة.

وبعدها كانت جلسة السمر، على ضوء الجمر، وكان فيها حديث حول ما يلزمنا لرحلة الغد إلى سوسمر.

وبعد العودة إلى الفندق والنوم والراحة، وصلاة الفجر والاصطباحه، والقهوة التي تداوي الجراحه، وتجربة قهوة الأمير المقطرة، أفطرنا من مطعم الفندق بعد التعديلات المؤطرة. وكان أفضل من الأمس، وكان خير نهاية لفقرات الفنادق والمدينة المتحضرة، لأننا سننتقل إلى سكنى الخيام والبادية المتشطّرة.

وتوجهنا بالباص والسيكويا إلى بشكيك، وهذا السيكويا يشترك مع التي نعرفها بالإسم، ولكن الطبايع ما تشابه طبوعه. حيث أنه يبدو أصغر، حتى صوت مكينته كأنها هايلوكس، والله أعلم بما تحت الكبوت.

سوق نور عطا

ووضعنا بيشكيك على يميننا وتوجهنا غرباً على الطريق الرئيسي، وتوقفنا عند سوق خضروات شعبي اسمه نور عطا، يحتوي على كل شيء يتخيله العقل ويقتضيه المقتضى، فأخذنا ما ينقصنا من عدة وزهاب، والحمد لله الرازق الوهّاب.

معانقة السحب

ثم توجهنا غرباً مسافة ستين كيلاً عن العاصمة، وكانت جبال قيرقيز آلاتو العالية، على شمالنا تعانق السحب الغائمة، ثم انعطفنا جنوباً نحو تلك الجبال، وحينما وصلنا أدناها، وجدنا مركزاً لتحصيل الرسوم، وكان الطريق يصعد في الجبال كأنه مرسوم، إلا أن أبا ناصر كان يعتقد أنه ينزل نزولاً. مع أن الأنهار كان لها على الإتجاه المعاكس هدير وجريان، إلا أن أبا عبدالملك من السائق مارسيل الوقوف ووضع الباص على الفاضي للتأكد والاطمئنان، واتضح أننا صاعدون فعلاً بالتجربة والبرهان. وقد أخبرنا ابو دينا أن هذا الشعور له اسم علمي معلوم، وأن ما أصاب نائب الأمير هو أمرٌ يصيب حتى الشباب ذوي القوة والعزوم، لذلك قال الطيارون "يجب أن تثق بمعداتك"، وأن لا تدع شعورك يغلب ما هو على اللوحة مرسوم. وقد تعلمنا أن منطق أرسطو هو باطل عند تجربة ابن تيمية. الذي سبق بيكون في هذا المفهوم.

وبعد ذلك ابتدأ الطريق بالارتفاع أكثر فأكثر، وبدأنا نرى بعض الشاحنات والسيارات تقف جانباً لأن محركاتها تشكو من الحر، وما هي إلى دقائق حتى لاحظنا أن سائقنا مارسيل بدأ يتوتر، وأغلق المكيف، ثم وقف على جانب الطريق، وكان بجانبنا النهر، فاسترحنا وتوضأنا لصلاة الظهر والعصر، وأعد لنا أسامة الشاي حتى أعلن السائق أن بإمكاننا المضي قدماً إلى سوسمر.

طريق سوسمر الجبلي

وبعد وقفةٍ أخرى أو وقفتين للتبريد، وتَعجُّبِنا من هذا الطريق المتعرج الفريد، الذي تبدو فيه معالم الإرث السوفييتي العتيد، الذي كان يحكم البلاد بالنار والحديد، ومن سائقي شاحنات الكاماز الروسية، الذين يسلكون هذه الطرق الصعبة في الغداة والعشية، وصلنا إلى منطقة ثلجية، ونزلنا وتزحلقنا حفاة وبالأحذية.

ثم وصلنا إلى النفق الذي يعبر بنا الثنية، والذي يبدأ بعده انحدار الطريق إلى وادي سوسمر ومناظره البهية من هذه الإطلالة العلوية الشجية.

وبعد النزول إلى أدنى الجبل تركنا قرية سوسمر خلفنا واتجهنا غرباً بموازاة الوادي مسافة أربعين كيلومتراً، ثم نزلنا إلى سهل فسيح تزينه أعشاب الربيع والزهور الملونة وما لذ طعمه من الخراف الرعوية، والخيول البرية غير المعسوفة، حتى وصلنا مخيمنا المنشود، وهو مخيم السلطان.

وهذا المخيم له بوابة رمزية خشبية من دون سور، وتم تزيينها بأعلام القيرغيز ودول الخليج، والمخيم يطل على نهر سوسمر، القادم من الجبال . وفي الجهة المقابلة من النهر يبدو منظرٌ من بديع صنع الرحمن، من الجداول القريبة التي ترفد النهر، والتلال الصغيرة، ومن ورائها الجبال العالية التي تكسو قممها الثلوج، ومما يكمل ذلك المنظر أن الغيوم ترحب أيضاً بالزوار، فهي تلوح من بعيد تارة، ويسيرها الرحمن لكي تنثر ماءها تارة، وحينما تحس أن الضيوف أحسوا بالبرد، فإنها تفسح الطريق لأشعة الشمس لكي تدفئ الأبدان والأرواح. وبالحديث عن الدفئ، فالخيام في هذا المخيم هي خيام قرغيزية، أو ان شئت قل خيام تركية، لأنهم كما قلنا أجداد الترك. ويسمونها بوز وتعني الأبيض، أو يورت، وهي دائرية قطرها حوالي الستة أمتار، وسقفها مخروطي يرتفع إلى ثلاثة أمتار، وجدرانها

وسقفها من أخشاب مطوية متشابكة وملتوية يغطيها الصوف، فهي مع اتساعها لا تجد فيها أعمدة، وحينما تدلف عبر المدخل الذي هو عبارة عن باب خشبي صغير بطرقتين، تجد موقداً ومدخنة صغيرة عن يمينك، لها درجين، علوي وسفلي، ولهم طريقة في إشعال النار في أحدهما ثم الآخر، وقد جهز أصحاب المخيم مقداراً معلوماً من الحطب يكفي لبرد الليل ويزيد. وتجد منصة خشبية ارتفاعها نصف شبر تغطي مساحة الخيمة إلا جهة المدخل ، فرشت عليها سجادة مستطيلة، ومن المعلوم أنه حينما نضع المستطيل داخل الدائرة فإن الحواف تبقى خالية. فكأن هذه السجادة قطعة مطبّقٍ وضعت على صحن ورقي دائري أبيض.

وقمة الخيمة عبارة عن أخشاب مطوية متقاطعة، مربوطة بإطار دائري، ومغطاة بالصوف، ويمكن فتحها وإغلاقها عن طريق حبال مربوطة على جوانب الخيمة. ولما كانت هذه الأخشاب قمة الخيمة، ومكان سؤددها وعلوها، فقد اختارها القيرغيز شعاراً لهم، ووضعوها على علمهم. مما يذكرنا بأبي الأسود الدؤلي حينما يقول: لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم،،وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا...وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عَمَدٌ،،وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ...فَإِن تَجَمَّعَ أَوتادٌ وَأَعمِدَةٌ،،لِمَعشَرٍ بَلغوا الأَمرَ الَّذي كادوا. أو حينما يقول الفرزدق: إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنى لَنا،،بَيتاً دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطوَلُ...بَيتاً بَناهُ لَنا المَليكُ وَما بَنى،،حَكَمُ السَماءُ فَإِنَّهُ لا يُنقَلُ،،بَيتاً زُرارَةُ مُحتَبٍ بِفِنائِهِ..وَمُجاشِعٌ وَأَبو الفَوارِسِ نَهشَلُ..وهذا مع فارق طريقة البناء، وفرق الأخشاب والأصواف في جزيرة العرب. ولكن كلٌّ ناسٍ بخيمتهم فخورون.

ولكل ساكن في هذه الخيام، جهزوا فراشاً سميكاً ولحافاً ووسادة، يفرشها النائم قبل أن ينام، ويطويها المستيقظ بعد أن يستيقظ.

وقد أعدوا لنا أيضاً بيت شَعرٍ عربي، وهو للزوم التصوير والجلسة الخارجية، والظل عن الحر. ولكن عند البرد والمطر، فإن الخيام القرغيزية أفضل.

وقد كان مكوثنا في تلك الربوع المبهجة أربعة أيام بلياليهن، وكان البرنامج اليومي يبدأ من صلاة الفجر، والقهوة والتمر، ثم الشكشوكة على الجمر، ثم ظهور الضمّر واعتلاء الجبال وقطع الأنهار الجارية والاستكشاف والسبر. حتى تكون الظهور والعصاعص كأنها خشب السمر.

فوق ظهور السابحات في بلد الخيل

قد علم الفرســان أن ليس كل من اعتلى الســرج خيال، وربما قررت أحد الخيول أن تأخذ إجازة من المشي فجأة، أو راق لها أحد الأعشاف فقررت أنه وقت الأكل، أو رهبت أن تقطع جدولاً صــغيراً، أو خافت أن تعتلي تلّاً قصــيراً. وربما ضحك علينا أحد أطفال القرغيز الذين ولدوا على السروج، أو مرافقنا أبو مسلمٍ الذي وإن كان من الحاضــرة إلا أن المســألة تأتي مبرمجة حتى لو ولد القرغيزي في نيويورك.

وربما ضــحك علينا أيضــاً خيالنا الماهر أبو ناصــر، الذي لديه مهارات في الركوب والجري واللكز واللحط، ولكنه لا يتبع مدرسـة معتبرة في الفروسـية، وأبو عبدالملك لديه بعض المهارات الجيّدة أيضــاً. والبقية يتعلقون على مقبض الأمان الذي في مقدمة السروج القرغيزية، ويتركون الخيول تقودهم إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم.

وحينما تقترب الخيول من المخيم وقت العودة، وترى أصحابها، فإنها تعدو عـدواً ســريعاً، والـذي يوفق منا للثبات فوق الســرج فإنه يغتبط بهذا الجري، وينطبق عليه القول: أرى كل مجرٍ أبا عـامرٍ،، يســرُّ إذا في خلاءٍ ركض. وأما من وافق تردده التردد الطبيعي للحصــان، فإنه إن اســتطاع ســحب اللجام فإن الحصان لا يوافقه، فليس له إلا التمسّك بكلتا يديه ورجليه والدعاء، وقالوا: إذا لم تكن إلا الأسنةُ مركباً،، فما حيلةُ المضطر إلا ركوبها.

لذلك كان اقتراح أبو أســـامة أن نتدرب على الركوب والتحكم تدرباً علمياً حقيقياً، فكانت فكرة "فرسان سوسمر" واللذي دربنا فيها نحن وأشـبالنا الفارس الخبير أحمـد المكينزي على التحكم في الثمامة، فمنّا من اســتوعب الدروس كلها وأصـــاب الثريّا، ومنّا من أصـــاب القمر، ومن ســـار على الدرب وصـــل، وسـوف ترى اذا انقشـع الغبار،،، أفرس تحت رجلك أم حمار.

شنكرشاك من ظهر الخيل

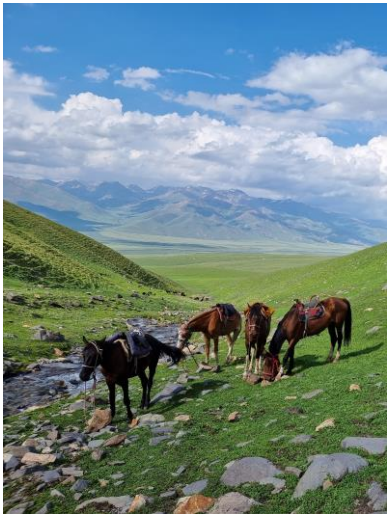

استراحة على جدول ماء منساب من ثلوج سوسمر

التخييم في سوسمر

من أبرز فعاليات سوسمر، هو تقليب "الشتايف" على جمر الغضا، أو جمر الغابات، وقد اختار لنا أبو مسلم وأبو ناصر وأبو عواطف ذبيحة من أحد أصدقائهم من طلبة العلم، وسعرها مع الذبح والسلخ زهيد ولله الحمد، وهم يعرفون أجواء شباب الخليج، فهم يعلقون الذبيحة كاملة عل "قنّارة" ويتركونك تقطع ما شئت منها وتشوي ما شئت وتكبس ما شئت وتصور ما شاء متابعوك منها، وقد أبدع مسؤول الإعاشة أبو إبراهيم في الطبخ، وأبدعنا معه في تقطيع الخضار وفي غسيل الصحون في النهر، وقد علمنا أن بداية جذب الشباب الخليجيين لهذه المنطقة كانت عن طريق دعوة شبه رسمية من بعض الشركات السياحية القرقيزية التي يديرها أناس ذوو خلق ودين، لعدد من المشاهير الخليجيين المعروفين بحبهم للرحلات البرية، وهم يرغبون بذلك تكثير السيّاح العرب المسلمين في مقابل السياح الروسيين والأوربيين الذين يغمرون بعض المناطق مثل بحيرة إيسك كول القريبة من كازاخستان. وفي سوسمر يوجد عدد

من المخيمات ذات الصبغة "البريّة" مثل مخيمنا، الذي وجدنا فيه أكثر من مجموعة خليجية، ووجدنا بعض المخيمات ذات الخمسة نجوم، والمصممة على شكل قبب كبيرة بدورين، وفيها خدمات فندقية، ولاحظنا فيها عدداً من العوائل الخليجية.

المخيم ذو الخمس نجوم

وكانت أحد الفقرات الشيّقة في يوم مشمس أن قرر الأمير السماح للمجموعة بالسباحة في النهر، وهو بارد جداً ويجري بسرعة كبيرة. وكان الهدف هو الترويح عن النفس، وغسيل اللبس، وحينما كان أبو إبراهيم يمشي في الماء وهو عريض المنكبين ما شاء الله، فسبب ذلك العرض مقاومة زائدة للماء، وحاول المقاومة، ولكن العاصفة تكسر الأغصان اليابسة، فقرر أن يسايس النهر حتى

كدنا لا نجده إلا في البحيرة التي تبعد أربعين كيلاً، ولكن الله سلّم بأن وفقه بمكانٍ متسع قليل الجريان، ووجد عنده شباباً من الإمارات، فرحبوا بهذا الزائر النهرواني، وساعدوه على الخروج، وقد سلم الله أن لم يكن هناك أجسام حادة تسبب جروحاً، ولكنه لم يسلم من رضوض بسبب بعض الأحجار هنا وهناك.

ومن الفعاليات التي قمت بها أن كانت لدي مشاركة في المؤتمر العالمي لجمعية هندسة النظم، وكانت بعنوان "التأثيرات الثقافية على هندسة النظم، هندسة النظم من منظور إسلامي"، وقد وفقني الله بعرضها على الزملاء في الباص، وفي بيت الشعر، قبل أن أخرج إلى فندق بجانب المحطة يحتوي على شبكة بسرعة عالية. وكان من التوفيق أني حجزت غرفة داخل شقة، بسعر منخفض. وبعد جلوسي لساعتين وبدئي بالتجهيز، طرق علي الباب مسؤول الفندق، ومعه أب لعائلة قطرية، وسألني بكل احترام إذا كنت أرغب بالانتقال إلى غرفة كبيرة لوحدي لأن الشقة تناسبهم أكثر وهي الوحيدة، وحاولت أن بشتى السبل أن أدفع أنا الفرق، ولكنه رفض ذلك جزاه الله خيراً. وكان لهذا الموقف تأثير كبير على الإيجاز الذي قدمته عن بعد، والذي حضره حوالي العشرون مهندساً جلهم غربيون، وعرضت فيه المنظور الإسلامي لهندسة النظم بأسلوب دعوي، وكانت هناك أسئلة وتعليقات إيجابية ولله الحمد والمنة، ونسأل الله الإخلاص والتوفيق.

وحينما جاء الظهر، وبعد أن نمت نومة طيبة فندقية بعد المعيشة البرية ولله الحمد، جائني أبو مسلم ومعه ثلاثة من الشباب، فاستفادوا من المرافق هناك. ثم قفلنا عائدين إلى المخيم.

وحينما وصلنا إلى المخيم، وجدنا أن أبا رهف وصل من البارحة، وهو واحد من اثنين كانت رحلاتهم مختلفة، والثاني هو أبو محمد: مازن، والذي أجرى فحص كورونا قبل الرحلة بيوم في أحد مراكز وزارة الصحة، وحينما وصل إلى الجوازات السعودية قبل الرحلة تفاجأ أن تحليله إيجابيٌ وأنه لا يستطيع السفر، فألغى الفكرة بشكل كامل، والحمد لله على كل حال.

وكذلك لاحظت أن أبا إبراهيم قد خرج من القارب النهري من دون قارب ذلك الصباح، وأن هناك العديد من الأحداث التي فاتتني بسبب المؤتمر، وما لا يدرك جلّه لا يترك قلّه.

التغريزة

وفي الغد، اليوم قبل الأخير في سوسمر، خرجنا بعد الظهر في رحلة سياحية، جميلة مليئة بالأحداث، وسبحان عالم الغيب والشهادة. ابتدأناها بالذهاب غرباً إلى طريق جلال أباد، ووقفنا عند عسّالين وعسّالات على جانب الطريق، واشترينا بعض العسل الذي وجدنا أنه ألذ من عسل الشركات الرسمية. والعسل هناك رخيص جداً وجودته عالية.

ثم عدنا إلى مفترق الطريق، الأعلى منها يؤدي إلى طلاس، والأسفل يتجه إلى وادي فرغانة وجلال أباد وأوش، والشرقي يعود إلى سوسمر. وقد وضعوا بوابة ونصباً تذكارياً لفارسهم "مناص" الذي يحفظ بعض القرقيزيين ملحمته التي تتجاوز عشرة آلاف بيت.

واتجهنا من تلك الثنية جنوباً عبر طريق ترابيّ إلى وادٍ جميل، تحفه الجبال العالية والثلوج، ففرشنا بسطنا وبدأنا بإعداد القهوة، ومنا من قام يتجول على رجليه، ومنا من قام بالتصوير، وبعضنا قد آثر التسدح والسوالف والتفكير.

أما فارسنا أبو ناصر، فقد أخذ مفتاح السيكويا وأخذني مع بعض الزملاء في جولة في ذلك الوادي البهيج. وبينما نحن نتجول باطمئنان، فإذا بالأرض من تحت العربة تموج وتمور فجأة، فإذا بجزء من ذلك العشب البهيج قد نبت على الطين. وكأن ذلك الطين قد جذب السيارة جذبا، وضمها إليه

وادي سوسمر

ضـم الحبيب الذي أضـناه الشـوق. وبعد محاولات يائسة لساعتين، فإذا بسائق الباص مارسيل يقدم بباصه متهادياً للمساعدة، وما هي إلا لحظات، حتى ثبت الباص هو الآخر. ورب فزعة قالت لصـــاحبها دعني. فانتقل التركيز من السيارة إلى الباص واختبر الشـباب كل ما تعلموه من أسـاليب الحفر والدفن والـدفع والسـحب، ولكن بعض الخبرات لا تفيد عندما يتغير المكان. وحينما قاربت الشمس على الغروب، حاولنا اشعال نار للتدفئ بها بصعوبة. ثم قرر أبو مسلم والأمير أن نعود مشياً إلى الطريق السريع. ثم جلسنا ننتظر مســاعدة من المارة، ولما لم يقف أحد، اتصــل أبو مســلم على مســؤول المخيم، وســاهم معه أصـحابه من المخيمات المجاورة بسـياراتهم لإرجاعنا إلى المخيم.

فكان هذا اليوم ممتعاً مع ما فيه من التعب، فليس كل شـخص يغرّز في قيرغيزستان. وفي الصباح ذهبت مجموعة من أصحاب المخيمات لإخراج الباص، لكي نعود ونكمل برنامجنا، وآثر أبو ناصــر وأبو عواطف الجلوس مع أبو مســلم حتى يخرجوا السيكويا. فأكملنا برنامجنا، والحمد لله على جميل أنعامه.

وعادت الباص إلى بيشكيك، وتعشينا في مطعم بابا جونز، وكان لذيذاً جداً بعد الرحلة المتعبة. ثم بدل مارســيل بأخيه علي، وواصــلنا شــرقاً متجهين على الطريق السـريع نحو بحيرة إيسـك كول، ونمنا في شـقق جميلة قريبة من الطريق، على شـكل مزرعة صـغيرة، وفيها فطور جيّد. ثم واصـلنا في الصـباح على الطريق

السريع، وهو طريق جيّد بمساربن لكل اتجاه، ولما اقترب وقت صلاة الجمعة، وقفنا عند جامع على الطريق إسمه جامع الأمين. وكانت المواضئ تحت الصيانة، والناس يتوضؤون من أباريق بجانب الأشجار. ولما دخلنا الجامع، فإذا به متسع فسيح، يصل ضلعه إلى ٥٠ متراً، وله قبة زرقاء جميلة تحملها أربعة أعمدة، ومحراب مزيّن بالألوان الذهبية والخضراء، ومنبرٌ مرتفعٌ جداً، فكأنه بالدور الثانب من المحراب، فإذا بالخطيب يخطب باللغة القيرغيزية في المحراب والناس لا يعيرونه اهتماماً ويتحدثون فيما بينهم، إلا من مجموعة في مقدمة المسجد. فتسننا وجلسنا نستمع للخطيب ونحاول أن نفهم ما يقول. ثم توقف الخطيب، ونودي للأذان، وقام كل من بالمسجد يصلون السنة، فصلينا معهم حتى لا نشذ عن الناس، ثم سلم الخطيب واعتلى المنبر المرتفع. وألقى خطبة عربية فصيحة قصيرة جداً، لم تتعدى الدقيقة والنصف، كلها حمد وذكرٌ ونصح بالتقوى، منها: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وفضّل الجمعة على سائر الأيام. ثم أقام المؤذن وصلى الإمام بترتيل جميل. فعلمنا بعد ذلك، أنهم ينزهون المنبر عن أي كلمة أعجمية، ولهم تقدير عجيب للغة العربية. فعلمنا أن نعمة نطقنا وقراءتنا للغة القرآن، يغبطنا عليها كثير من المسلمين في تلك البلدان، فاللهم أعنّا على تقدير هذه النعمة، وعلمنا من القرآن ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنّا.

وبالحديث عن القرآن والسنة، فإن أبا أسامة أعد لنا برنامجاً خفيفاً لطيفاً، يقرأ فيه علينا بعد الصلوات دقيقة واحدة من أحد الأذكار من تطبيقٍ متميّز في جواله، فجزاه الله خيرا.

شاطئ البحيرة

بعد أن خرجنا من جامع الأمين واصلنا المسير باتجاه الشرق، والبحيرة تبدو عن يميننا، تغطيها المباني والمزارع تارة، ونلمحها تارة أخرى، وقد زرعوا أشجاراً جميلة على جوانب الطريق،أعطته منظراً فريداً، والقرى والديار تكاد لا تنقطع عن تلك البحيرة.

والبحيرة يبلغ طولها ١٨٠ كلم وعرضها ٦٠ كلم، وهي سابع أعمق بحيرة في العالم، ويقولون أنها مالحة، ولكن ملوحتها أخف بكثير من البحر، وذلك لأن الأنهار والثلوج تسقيها من الوديان المحيطة. وشمال البحيرة مليء بالمنتجعات التي كانت عامرة بالسوفييت قبل انحلالهم، ومن أبرز الأسباب قربها من ألماتي (أو التفاحة) العاصمة القديمة لكازاخستان، وأكبر مدنها.

حتى وصلنا إلى مدينة تشولوبان آتا، وهي مدينة سياحية بامتياز، تلحظ فيها السياح الروس خصوصاً، وقد أخذوا راحتهم في الملابس الصيفية وعلى الشواطئ الرملية، وفي المجمعات التجارية. وأنخنا مطيتنا فيما يسمونه سرير وإفطار، وهو فندق بسيط كالذي قبله، قد بنوا الغرف على أطرافه، وتركوا مساحة لبعض الجلسات الجميلة، وألعاب الأطفال، وتنس الطاولة التي بلغ بها بعضنا الاحتراف، خصوصاً أبا حمد وأبا إبراهيم.

وقد اتفق الشباب عرفاً أنه من كان في غرفة لوحده بالأمس، فإنه يأخذ غرفة مشتركة اليوم، وقد كان نصيبي غرفة لوحدي أول يوم، وخيمة مع أبي ناصر وأبي عواطف وأبا مسلم في سوسمر، وقد تبادلنا القصائد النبطية والمقامات القرغيزية في تلك الخيمة عند النوم، فقد كان الشخير يسمعه السائر من بشكيك، والله المستعان. وفي الفندق الأخير أخذت غرفة لوحدي، ولما جاء ذلك

الفندق كانت قرعتي مع السائق علي في نفس الغرفة، وقد تبادلنا الأحاديث المسائية الشيقة عن طريق مترجم قووقل، فأخبرنا بأبنائه وبنته، وكيف يحرص على تحفيظهم القرآن وتربيتهم تربية صالحة. والحمد لله رب العالمين.

وبعد أن ارتحنا قليلاً توجهنا إلى شاطئ الرمال الذهبية، وجاءتنا الأخبار أن أصحاب السيكويا قد أخرجوه من مأزقه، وأنهم يصلحونه لكي يتوجهوا بالغد إلينا. فلله الحمد على توفيقه لهم، وتوفيقه لنا بالاستمرار على مخطط الرحلة دون مشاكل.

ووجدنا على الشاطئ بعض الفعاليات الشاطئية، فبعضنا تعلق على البرشوت، وبعضنا ركب الجت سكي، وأبو إبراهيم دخل سباحة حتى صار كأنه نقطة في بحر. وأما أسامة وأبو عبدالملك وزياد، فقد وجدو رجلاً يحمل طائراً كبيراً، لعله نسر أو عقاب، يدعك تحمله وتصور معه بمبلغ كبير.

شاطئ ايسك كول

ولما مالت الأغصان مع نسيمات الأصيل عمل الشباب القهوة والشاي، وأحضروا جحة (بطيخة) لذيذة، وكان معنا اثنان من أصحاب السكن، أحدهما معلم للتحفيظ ويحاول الحديث بالعربية، وكان هو الذي يؤجر الجتسكي. والآخر أخوه الكبير، ولعله متقاعد، فقام بتقطيع الجحة على شكلٍ مدرج فريد. وكان بعض الشباب يرمون بقايا الجح على الشاطئ،

فلاحظنا أن القرغيزي يقوم بجمعها وتنظيف المكان، من دون أن يتكلم أو نشعر، فكان موقفاً نبيلاً منه.

وبعد ذلك عدنا إلى السكن، وذهب أبو دينا وزياد إلى وسط المدينة، فطلب منهم أبو إبراهيم أن يحضروا بعض الدجاج والحاجيات، فكبس لنا كبسة خفيفة في المطبخ المشترك.

وعند الصباح، كان الإفطار في مطعم السكن جيّداً، واحتوى على الخبز الفرنسي، والتوست والأجبان وشرائح المورتديلا والسلطة.

وبعد أن جمعنا أغراضنا توجهنا مع طريق البحيرة شرقاً مسافة ٤٠ كلم، ثم أخذنا طريقاً فرعياً إلى وادي قرتشن، ونزلنا في مكان متّسع من الوادي، تكثر فيه الأشجار الظليلة، والأماكن المناسبة للجلوس بجانب النهر. ففرشنا فرشتنا وطبخنا قهوتنا. وقد كان هناك نقصٌ في الفرش والعزب، بسبب أن أغلبها في السيكويا الذي لم يصل حتى الآن، ولكنها كانت كافية، فالشباب لم يأتوا للجلوس، فما لبثوا أن التقوا ببعض الجذعان من أصحاب الخيول فاكتروا منهم ظهورها، واختلفوا في البداية والنهاية في أجورها، ولكن السائق علي حل المشكلة.

وقد تأخرت عن الفرسان خمسة دقائق، فلم أستطع إيجادهم، فقد تعودوا على الإنطلاق سريعاً. فتمشيت يميناً وشمالاً، وكلما أراد الفرس (أو لعله حصان) الركض، سحبت عِنانه فمشى الهوينا، فأحياناً أقدر عليه وأحياناً يقدر علي. وقد قالوا أن "الحكَمة" هي الحديدة التي توضع في فم الفرس، وحكمته أي منعته، ومنها التحكّم. ففهم هذا المصطلح الهندسي المعقد وأنت فوق السرج ورجليك على الركائب وأنت ممسكٌ بالعنان المرتبط باللجام والشكيمة والحكمة له طعم آخر.

أما أبو إبراهيم، فكعادته، بدأ بالاستعداد لإعداد الغداء، وهو دقيقٌ حاذقٌ بالموازين والمقادير، حريصٌ جدّاً على أدواته ومعاميله. وهو وإن استعان ببعض الشباب للتقطيع والتبهير، إلا أنه هو "السستم إنجنير" كما قال في صلالة. فكانت أكلة لذيذة كالعادة ولله الحمد.

كاراكول

ثم ركبنا الباص عائدين إلى طريق البحيرة السريع، ومواصلين باتجاه الشرق. وقد كان الباص مكاناً خصباً للشيلات والأهازيج، فكان أن أتحفنا أبو أسامة بشيلة:(ياليالي ياليالي)، فأنشدنا وراءه وأضفنا عليها وسجلناها بالصوت، واستعملها لاحقاً كخلفية صوتية لبعض مقاطع الرحلة.

وبعدها واصلنا إلى آخر المساكن السياحية لنا قبل العودة إلى بشكيك. وهو في أحد ضواحي مدينة كاراكول، التي تقع على الطرف الشرقية من بحيرة إيسك كول. وترجمة إيسك كول هي البحيرة الدافئة، وكارا كول هي البحيرة السوداء.

والمدينة أنشأها السوفييت كنقطة فاصلة بينهم وبين الصين، وأسموها برزفالسك تخليداً لرحالة روسي كان يستكشف التبت وتوفي فيها بالتيفوئيد سنة ١٨٨٨، ولكن القيرغيز أعادوا إسمها إلى كاراكول بعد الاستقلال، وقالوا أنها كانت مركزاً عسكرياً لاختبارات الطوربيدات البحرية وأنظمة التحكم بها، وقد هاجر إليها عدد من الصينيين الدونجان قبل مئة وخمسين سنة، وأنشأوا مسجداً لهم على الطراز الصيني، هو تحفة فنية، وخلال اشتداد حكم السوفييت حولوه إلى مخزن، ثم عاد بعد سقوطهم سنة ٩١. وقد زرناه وصلينا فيه العشاء في اليوم التالي.

وقد وصلنا السكن مساءً، وكان منتجعاً فخماً جداً، بأكواخ خشبية متعددة المقاسات، واسمه سكي بارادايس، أو جنة التزلج، وذلك بسبب قربه من منحدر تزلج له تيلفريك طويل.

وكان حجزنا فلتين متلاصـقتين: واحد وثلاثين واثنين وثلاثين، كل فلة منهما فيها صـالة ومطبخ وثلاثة غرف نوم ودورتي ميـاه. وكـانـت الأكواخ على درجة عالية من الجودة. ومن المرافق الموجودة منصـة خارجية تطل على نهر كاراكول وعلى بحيرة ايسـك كول من ارتفاع شاهق.

اطلالة على نهر كاراكول

وبعد أن جلسـنا وارتحنا من السـفر، وصلنا أصحاب السـيكويا. وكـان زميلي بـالغرفـة تلـك الليلـة المتسـبب بالتغريزة أبو ناصـر. وأما أبو عواطف، فقد جاء ومعه حقيبته المفقودة المنقوشـة، فأخبرناه أن يبدل ملابسـه كل سـاعتين لكي يحلل ما فاته، والحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

وقد كانت تجربة زياد وأبو دينا في الخروج والعودة في الليلة الماضـية جيّدة، فقد عرفوا تطبيق سيارات الأجرة هناك "ياندكس" وهو دارجٌ في الأقطار الروسـية وما تاخمها. لذلك كرروا التجربة تلك الليلة، وحكوا لنا عن بعض مشـاهداتهم هناك. وقد أحضروا لنا مع أبي مسلم ساندويتشات شاورما لذيذة. فكانت أفضل عشاء ولله الحمد.

وبعد صلاة الفجر كنا "نيام الضحى"، ولم نستفق إلا وأبو عواطف يحوف الشـكشـوكة والتونة وهو يرتدي تكميلة حمراء، فكان فطوراً كونتينينتال كما قالوا، خصوصاً مع العسل القيرغيزي المتميز.

وبعدها كان موعدنا مع التيلفريك، و بما أن تشـغيله يسـتهلك وقوداً، ولا يمكن أن تتحرك عربـة واحـدة، بـل إن النظـام يحرك العربـات كلهـا مع بعض، فيبدوا أن مسـؤولي المنتجع تعارفوا على سـاعة معينة يركب بها الناس دفعة واحدة. وللوصـول من المنتجع إلى قاعدة التيلفريك يمكن الذهاب مشـياً عبر الغابة، أو بالسيارة عن طريق العودة إلى طريق ترابي فرعي.

وكل عربة من التيلفريك تحمل شخصين، ولهذا التيلفريك مرحلتين، في كل مرحلة يصـطف الناس أزواجاً، وحينما يأتي دورك، يطلب منك المأمور أن تقف على منصـة خشـبية صـغيرة باتجاه الجبل، ويأتيك الكرسـي من ورائك وتجلس عليه، ثم ينزل المقبض الحامي من السقوط لا قدر الله.

ورأينا الصـنوبر على أغصـان الأشـجار. واسـتطعنا أن نقطف بعضـه. ولاحظنا رجلين يصعدان الجبل على رجليهما.

ثم وصـلنا القمة، وقد وضـعوا فيها بعض الطاولات، ووضـعوا لوحة كتبوا عليها كاراكول ٣٠٤٠ وهو ارتفاع هذه القمة. وحرف الراء بالأحرف الروسـية يكتب على شـكل P. وحرف اللام شـكله قريب من رقم ثمانية عندنا ٨. والقمة من جهتها الجنوبية تطل على مزيد من الوديان والجبال، وفي جهتها الشـمالية لها إطلالة رائعة على كاراكول وبحيرة ايسك كول.

وقد حرص أصحاب المعاميل على أخذ شنطة فيها ترامس شاي وقهوة وتمر وحبشـتكات. فبسـطناها على أحد الطاولات وجلسـنا نتأمل هذه المناظر البديعة، وكان الجو بارداً مع أنه معتدل أسـفل الجبل ولكنه كان جميلاً، خصـوصـاً مع معاطف "كولومبيا" التي كنا أشبه بفريق تسويقي لتلك المعاطف، وكنا ندعوا لأبي إبراهيم بجنة لا يرى فيها شمساً ولا زمهريرا كلما ارتديناها.

وبينما نحن نتأمل ونتحدث ونصوّر، فإذا بالرجلين الذين كانا ينقبان الجبل يصــلان، فإذا هما تركيان، أحدهما معلمٌ في كاراكول، والآخر قدم للزيارة. فقدمنا لهما التمر وهم يســمونه (قورمه)، وقد اغتبطا به أنه من بلاد الحرمين، وأن أبا أســامة من مكة وأبا عبدالملك من المدينة، واســتأنســا على القهوة والشــاي، وقد كانت الشــنطة التي يحملها أحدهما فيها زمزمية شــاي تركي أيضــاً، فكانت حفلة شاي دولية فوق هذا المرتفع الجميل.

وبعد حوالي نصــف ســاعة من جلوســنا، قال المنظمون أنهم ســيشــغلون التلفريك للعودة والنزول، فبدأنا بالاســتعداد، وأراد أبو ناصــر وأســامة وأعتقد زياد أن يختبرا نزول الجبل على الأقدام، وآثرت أن أرجع مع التلفريك خوفاً من تسخين الهوب وانفراط القماشــات أو أن أنزل كجلمود صخرٍ حطه السيل من علِ.

فقلنا للتركيين أن بإمكانكما استعمال تذاكر الزملاء للعودة، فشكرا ذلك.

وبعد أن استوينا على الأرض، أكملنا قهوتنا في المنتجع، وقبل المغرب توجهنا إلى أكبر مطاعم كاراكول واســمه داســتوركون، وفيه جلســات كثيرة ومســرح، وأطعمة داخلة ومشويات خارجة، فاختار لنا أبو مسلم جلسة خارجية على شكل خيمة، فطلبنا ما لذ وطاب من المشــويات والأطباق الصــينية والشــعبية، وبعد أن انتهينا طلبنا الشــاي، ففاجأنا أبو مسلم أنه طلب من الفرقة الشــعبية أن يقدموا لنا بعض الأغاني الشــعبية بشــكل مخصــوص، فكان منا: لا يطربه التغريد ولو،،، غنّا بالأرغن معبده،، ومنا من أصر عليه أبو مسلم للجلوس، وبعضنا كما قيل: ما لاح برق أو ترنم طائر،،، إلا انثنيت ولي فؤاد شيّق.

وكانت الفرقة مكونة من فتاتين وشـــاب، كل منهما معه طنبور بوترين أو ثلاثة أوتار، وقال أبو مســلم أن أحد الأنواع قيرغيزي أصــلي والآخر يختلف قليلاً بالحجم. وقد تنوعت الأهازيج بين عزفٍ من دون غناء، وبين غناءٍ فردي ومشــترك. وكانت القصــائد عن البطولة والحب، وإن كنّا لا نعرف محتواها، ولكن الشــعراء قل أن يخرجوا عن تلك الأغراض، منذ الشنفرى وحتى ابن شلحاط.

ولما انتهينا من المطعم توجهنا سيراً على الأقدام إلى مسجد دونجان الخشبي، وهو كما قلنا من بناء الصــينيين الدونجان الذين فرو بدينهم بداية القرن العشــرين، والذي أســسه شخص يدعى حاجي إبراهيم، وحوله الســوفييت إلى مخزن للحبوب لحوالي ثلاثة عقود، حتى أعادوه مسـجداً في الســتينات بعد محاولات دؤوبة. وهيكله الرئيســي وأســقفه من الخشب المعشق الذي لا يحتوي أي مســامير، والذي اســتوجب صــينيين محترفين لبنائه لمدة ٣ سنوات.

مسجد دونجان الخشبي

ومع أن الوقت كان بعد صلاة العشاء، والأضواء كانت خافته، إلا أن جمال المكان كان واضحاً، والحديقة الهادئة في مقدمة المسجد، ونظافة الفرش والمرافق.

وقد رسموا عدداً من اللوحات الجدارية الكبيرة الرائعة المزينة بآيات قرآنية خارج المصلّى، منها لوحة طبيعية فيها جبال وأنهار وسحب وأمطار، زينوها بقوله تعالى { ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }

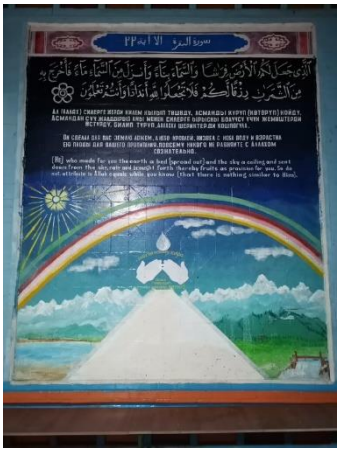

لوحة 1

[سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٢] مترجمة باللغة الروسية، ولغة أخرى ذات أحرف مشابهة لعلها القيرغيزية، وباللغة الإنجليزية. ولوحة أخرى لكواكب المجموعة الشمسية وفيه قوله تعالى { وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }

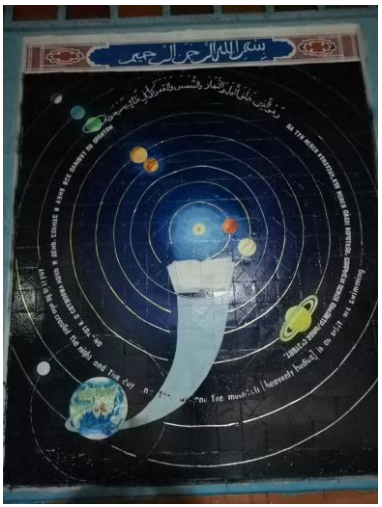

لوحة 2

[سُورَةُ الأَنبِيَاءِ: ٣٣]، مرسوماً مع ترجمته على شكل مدارات. وقد علقوا عدداً من الآيات المخطوطة يدوياً على ورق صيني.

وأما المحراب فهو مبنيٌّ وأبيض بسيط من دون زخارف، ومحاط بطوب مصبوغ بلون أخضر داكن ومحدد بألوان ذهبية، ورسموا على جانبيه بالخطوط المذهبة شكلاً رمزياً لمنارتين من منائر الحرم المكيّ. كأن هذا المحراب هو "الطريق إلى مكة" وما يذكر

فيه ذلك الكتاب القيّم لمحمد أسـد، ومنها وصـفه للقافلة الممتدة من جدة إلى مكة، وكأنه تمتد إلى ما لا نهاية، وهي تحمل أشخاصاً أتو من كل فج عميق، والتي منها هذا الفج في أقصى ما وراء النهر.

وقد كان وصولنا لهذا المسجد بعد صلاة العشاء، فصلينا العشائين جمعاً وقصراً، ثم قفلنا عائدين إلى أكنافنا.

وعند الفجر، جاءت رسالة من أبي ناصر، بأن نكون في الباص الساعة ٨:٥٠ص، وأن نحضر معنا ملابس السباحة.

فأخذنا الطريق المتجه غرباً من كاراكول، أي أننا صرنا نمشي جنوب البحيرة مسافة ١٥ كلم تقريباً، ثم اتجهنا جنوباً باتجاه الجبال، حتى وصلنا إلى جبال حمر غريبة يسمونها الثيران السبعة، بعدها يصبح الطريق ترابياً يوازي الوادي المنحدر بعنفوانٍ من الجبال العالية التي تعلوها الثلوج الأزلية، أي التي لا تذوب في صيف ولا شتاء. وكان الطريق الترابي كأنه يشاغب ذلك الوادي، فتارة يكون على يمينه، وتارة يقفز إلى شماله، ودائماً ما يكون القفز عن طريق جسور خشبية بسيطة، لا يحسب الشخص أنها تتحمل وزن الباص، ويحمد الشخص ربه أن سلمه من الوقوع في ذلك النهر الجارف.

وخلال مسيرنا أتحفنا أبو أسامة بتلاوة شجية من سورة الانشقاق. بالإضافة إلى ما يتخلل جلسة الباص من أحاديث شيّقة، خصوصاً إذا كان هناك بعض الشاي والحبشتكات. وقد كانت دخلت عشر ذي الحجة، فكانت هناك التلبية والتكبير والتسبيح. أما اللحم، فقد كنا قد عيّدنا قبل العيد ولله الحمد.

وبعد طريق وعر، وصلنا إلى مخيم صغير مرتفعٍ عن ضفة النهر، فيه خيمة قيرغيزية واحدة للتأجير، وخيمة أخرى أو أنه بيت من الصفيح لساكني المكان،

الـذين علمنـا من أبي مسـلم أنهم يكونون في قراهم وقت المدارس، وحينما تـأتي الإجازة الصـيفية، فهم يشـغلون هذه الأماكن السـياحية، ، وأسـفل من بيوتهم جلسة بمظلة، فاخترنا مكاناً ظليلاً بجانبها. وأنزلنا الأغراض عندها.

وخبز لنا أبو عواطف خبزة جمرية لذيذة، خصـوصـاً مع العسـل القيرغيزي. أما أبو بسـام، فقد ذهب مع أبو مسـلم لكي يبحثوا عن آخر خرفان هذه الرحلة، فوجـدو خروفـاً طيبـاً عنـد أحـد المخيمـات القريبـة، التي تعود أهلهـا على الـذبح والسـلخ والتقطيع. وقد لاحظ أبو بسـام أنهم سـحبوا ماسـورة من أعلى النهر، وجعلوها تصب الماء على توربينة صغيرة لتوليد الكهرباء.

وكان من الفقرات الأوليـة بعـد وصـول الخروف وتعليقـه، هو الأضـلاع المشوية، ولما لم يكن هناك منقل مهيأ لذلك، ابتكر الشباب طريقة لشوي الأضلاع عن طريق تثبيتها بسيخين وغرزهما بجانب النار.

وبعد ذلك بدأ عمل قدر الضـغط، "الهواية المفضـلة للسـعوديين، في بلد يقدر حقوق الإنسان" كما قال أبو بسام.

وكان بعدها ركوب الخيل، وبما أنه كان الركوب الأخير في هذه الرحلة، فقد كان العدد أكبر، وكانت المسـتويات أفضـل. ولم تخل هذه الرحلة من مشـاكسـات المتفرسـين، وتنمر المتقدمين على المتأخرين. وقد كنت اسـتعرت حذاء الأمير من دون اسـتئذان بعد أن تجرحت رجلاي من الركوب الأخير، فعلمت بعد ذلك أن اختيار الحذاء المناسـب من أهم العناصـر المسـاعدة على الركوب، المؤثرة على السـلامة في حال السـقوط لا قدّر الله. وقد جرّبت في تلك المرة أن أجري الخيل بشـكل أسـرع، وأن أعبر التردد الطبيعي الذي يجعلني أقفز، وقد حققت ذلك ولله الحمد.

وقد صـــعدنا بالخيل إلى مرتفع الوادي، واكتشـــفنا أننا قريبون من مخيم آخر، يصـــبح بعدها الطريق وعراً جداً حتى على ســـيارات الدفع الرباعي، ويزداد هدير الماء. وقد عبرنا جسراً أو جسرين وبعض الجداول الصغيرة، ثم ارتحنا تحت ظلال الأشجار، ثم عدنا إلى مكاننا.

وقد فرشـــت اســـفنج أحد الكراســـي تحت ظل شـــجرة، وأخذت قيلولة، فاكتشفت أن نفراً من الشباب قد صوروني على حالتي تلك، والله المستعان.

إلا أنهم لم ينســـو أن يوقضـــوني حينما جهز الغداء، وقد كان عبارة عن حميسة مضغوطة من يد أبي إبراهيم على أعلى المستويات.

وبعد أن صلينا الظهر والعصر، تجاذبنا ما تبقى من أطراف الحديث، ومن مميزات هذه الرحلة عموماً وهذا المكان خصـــوصـــاً، البعد عن شـــبكة الجوال، وأبراج الاتصال، ووسائل إضاعة الوقت الاجتماعي، مع وجود ما طاب من الأحباب والأصـــحاب، ذوي الخبرات المتنوعة والأحاديث العذاب. بالإضـــافة إلى المرشـــد المتميز أبو مسلم، الذي يحرص على الحديث المفيد.

وبعد مرور وقت لا بأس به، وقبل مغادرتنا للمكان وســـط العصـــر، فاجأتنا أم أصـــحاب المكان بخبزةٍ جمرية قرقيزية لذيذة، معها شـــكلين من المربى المحلي الصنع. أحضرتها لنا كهدية، ولعلها شعرت أن الجوع بدأ يداهمنا جزاها الله خيراً.

وبعدها حمّلنا أغراضـــنا وقفلنا عائدين مع طريقنا الترابي ذي الجســـور. وبعد قطعنا لبعضـــها، وجدنا أمّة قد أوقفوا ســـياراتهم وســـط الطريق ونزلوا على أرجلهم، فنزلنـا نســـتطلع الأمر، فـإذا برهط من العـاملين والمعـدات، يحملون أعمدة حديد لبناء جســـر حديدي متين فوق جســـر خشـــبي قديم. وأثناء انتظار انتهـاء العمـل، وجـدنـا التركيين الـذين قـابلنـاهمـا عنـد التلفريـك بـالأمس. فأعطاهم أســـامة وأبو عواطف بعض القهوة العربية والتمر.

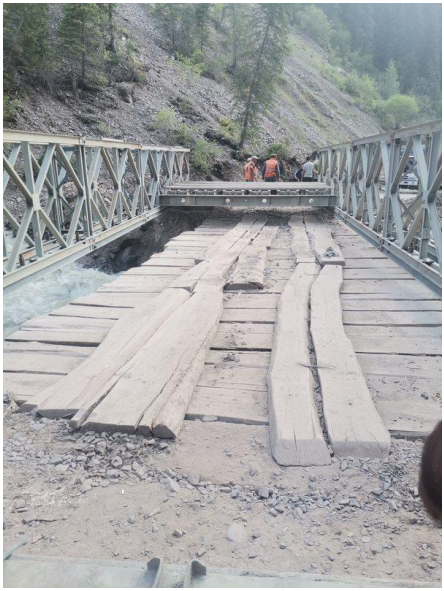

الجسر الخشبي

وقد اختار بعض الشـباب أن يعبروا الجسـر على أرجلهم ويمشـوا مع الطريق حتى نأخذهم بالسـيارة عند انتهاء العمل. ولم نلبث إلا أن أبا مسـلم وبعض القيرغيزيين طلبوا من العـاملين أن يوقفوا عملهم، ويمهـدوا طريقـاً مؤقتـاً لعبور النـاس المتعلقين، ثم يستأنفوا ما بدؤوه، وكان ذلك ولله الحمد.

فعبرنا وأركبنا المشّـائين الذين سـبقونا، فكان منهم من يمشـي الهوينا ومنهم المستعجل.

وبعد وقفة بســـيطة لتصـــوير الثيران الســـبعة قبل الغروب، توجهنا إلى الينابيع الحارة، وهي في وادي آك-صـــو، وهو شـــرق كاراكول، أي أننا رجعنا إلى

كاراكول وتعديناها، ثم صعدنا باتجاه الجنوب عبر الوادي المنحدر، حتى وجدنا منتجع الينابيع على ضفة النهر الجاري. وهو عبارة عن مجموعة مسابح متصلة ببعضها، أولها حارّ جداً، لا يطيق الشخص الجلوس فيه عشرة ثوان، والثاني أقل حرارة، والثالث أقل منهما. كما يحتوي على مسبح بارد ولكنه متعطل. وقد وضعوا مساراً ينزل إلى النهر الجاري، ووضعوا دلواً مربوطاً بأحد الأعمدة لمن أراد أن يملأه ويغتسل به أو أن يمازح أحد رفقاءه بهذا الماء البارد، وقد حدثت هناك عدد من المشاكسات، حيث أن المرء لا يستطيع أن ينزل إلى النهر بسبب جريانه السريع، فليس له إلا الرجوع مع نفس الطريق الذي جاء منه، وتحمل الماء البارد من الشباب، والله المستعان.

وقد لبثنا في تلك الحمامات أقل من ساعة. وأحضر لنا بعض الشباب الكولا الباردة هناك، وبعد أن ركبنا وقفلنا عائدين أحسست بدوخة فطلبت منهم الوقوف، ولا أعلم هل هي بسبب تغير الأجواء الباردة والحارة، أو أنه من تأثير تلك المياه، أو من شيء أكلته أو شربته، ولعله شر زال إن شاء الله.

وبعد أن رجعنا، وقفنا لبعض الحاجيات في كاراكول، وأما ركاب السيكويا فقد طلبوا لنا بيتزا لذيذة من أحد المحلات، فكانت عشاءنا تلك الليلة. والحمد لله على جزيل أنعامه.

وفي الصباح الباكر حملنا أغراضنا استعداداً للعودة إلى بيشكيك، ومع قصر جلستنا في ذلك المنتجع الجميل، إلا أنها كانت ممتعة ومليئة بالأحداث، وقد كانت تلك الليلتين مع ما فيها من تنقلات ثاني أطول مدة نجلس بها في مكان واحد، بعد سوسمر، فقررنا أن نعالج هذه الإشكالية مستقبلاً إن شاء الله.

علامة من العهد السوفييتي السابق

وقرر أميرنا أن نسلك الطريق الذي من جنوب البحيرة، حتى نمر على أماكن مختلفة. وكان الطريق أقل خدمات وسالكين من الطريق الشمالي، وعدد القرى فيه أقل، ومررنا على بعض الأماكن التي تبدوا كمشاريع منتجعات متعثرة من الحقبة السوفييتية، ومررنا على بعض المنتجعات الحديثة، وكان أحدها ضمن الخيارات المرشحة عند التخطيط للرحلة. وبعد عبورنا لمنتصف الطريق، وقفنا عند أحد الشواطئ العمومية، وكان موقفنا أمام مجموعة من البقالات والمطاعم، نعبر من بينها إلى ذلك الشاطئ، وفيه دورات مياه مدفوعة، بعضها لها باب، وبعضها ومن دون باب، وبعضها بنصف جدار، والعبرة بالوظيفة.

شاطئ عمومي

وأما الشاطئ فكان مليئاً بالمتنزهين، من القيرغيزيين والروسيين، والأمواج فيه شديدة، يصعب على الرجل الدخول فيها، على عكس شاطئ الرمال الذهبية الشمالي الذي زرناه قبل ثلاثة أيام.

وحينما عدنا إلى الباص، أخبرنا أبو عواطف أن أصحاب المطعم الذي وقفنا أمامه القيرغيزيين، عندما علموا أننا من السعودية أصروا على أن يهدوننا

من فطائرهم مجاناً جزاهم الله خيراً، وهي تشبه ما يسميه أهل الحجاز اليغمش، وبعضها حار وبعضها بارد بحشوات مختلفة لذيذة ولله الحمد.

وبعد أن تبقى حوالي خمسين كيلومتراً على نهاية البحيرة والتقائنا مع الطريق الشمالي، بدأ طريقنا يتقطع، فتارةً يكون ردمية، وتارة يرجع معبداً، مع اجتهادهم في العمل على بعض الأجزاء.

وبعد ارتباطنا بالطريق الرئيسي مررنا ببعض الأجزاء التي كنا عبرناها ليلاً، ومن أبرزها نهر تشو على يميننا ونحن عائدون إلى بيشكيك، والذي يبدأ في قيرغيزستان، ويمر على مسافة قريبة جداً من بحيرة إيسك كول إلا أنها لا يوردها ولا يفيّض منها، ثم يكون منه حوالي ٢٠٠ كلم هي الحد الفاصل بين قيرغيزستان وكازاخستان، ثم يكون في أغلب مسافته داخل كازاخستان. فكان النهر يحاذينا في حوالي ٨٠كلم من مسيرنا، وبعده تبدو منطقة سهلية ثم جبال عالية، ونلحظ أن لونها مصفر، وكأنها أقل خضرة من الجبال القيرغيزية اللتي شاهدناها في كاراكول مثلاً. كما لاحظنا عدداً من نقاط المراقبة العسكرية الكازاخستانية، والثكنات العسكرية التي تبدو في السهل وعلى بدايات الجبال.

سهول مصفرة على حدود كازاخستان

معبر حدودي مع كازاخستان

ومررنا على معبر حدودي بجانب الطريق مباشرة، وهذا مما يدعو للتفكر في كيفية تقسم هذه المناطق، ومن الذي وضع هذه الحدود، وهل كانت هذه الحدود موجودة قبل الاتحاد السوفييتي أم أنها أنشئت بعده.

وبالحديث عن الأنهار في هذه الديار، فإن نهر تشو يبدو كأنه يحاول أن يكون رافداً لنهر سيحون، إلا أنه يقف في أحد صحاري كازاخستان قبل الوصول إلى بغيته بحوالي مئة كيلومتر. إلا أن هناك رافداً رئيسياً ينبع من الجبال القيرغيزية، وهو نهر ناريان، وهو يرفد نهر فرغانة الذي يرفد نهر سيحون. ونحن لم نقف على نهر ناريان أو أحد روافده، إلا أن جبال كاراكول كانت تحجبنا عنه، ونهر كاراكول ينحدر من نفس الجبال التي يبدأ منها نهر ناريان، إلا أن الأول ينحدر منها جنوباً باتجاه بحيرة ايسيك كول، والثاني يذوب مع الثلوج باتجاه الشمال ثم الغرب. وكذا الأمر مع الجبال التي ينبع منها نهر سوسمر.

وبما أن نهر ناريان وما يصبه في فرغانة ثم سيحون يشترك فيه ثلاثة دول، وهي قيرغيزستان وأوزباكستان وطاجيكستان، فإن هذه الشراكة هي واحدة من الأشواك التي زرعها السوفييت وستالين في هذه المنطقة، فالنزاع على الماء، وعلى الأراضي الزراعية، وعلى الحدود المعقدة هو أمر دائرٌ بين تلك البلدان منذ سقوط الاتحاد السوفييتي واستقلال كل دولة لوحدها، وقد اشتدت تلك الخلافات في مرات عديدة، ووصلت لقتال مسلح في كثير من الأحيان. والله المستعان. وكما

يصـــف روبرت كابلان في كتابه انتقام الجغرافيا " أن هذه الجمهوريات لم تكن متراكبة بدقة على حدود عرقية، وبالتالي لا يمكن الخروج من هذه المعضـــلة والانفصال من دون حرب أهلية، وبالتالي أصبح الاتحاد السوفييتي سجناً للأمم". ومما شاهدنا الحرب التي دارت حوالي ثلاثة أيام بين قيرغيزستان وطاجيكستان، ولكن العقلاء من تلك البلدان يســعون لحلحلة هذه الأمور، ومنها إتمام ترســيم الحدود بين أوزبكســتان وقيرغيزســتان، التي تزيد على ١٤٠٠ كلم، وكان أكثر من ثلثيها متنازعاً عليه. { وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ } [سُورَةُ يُوسُفَ: ٢١].

بشكيك

نعود إلى طريقنا، وقفنا أثناء المسير في محطة للوقود. ثم دخلنا العاصمة بيشكيك، وكانت السماء تمطر هتّاناً خفيفاً ممتعاً. وتوجهنا إلى موقع السكن الأخير، والذي تميز بكونه قريباً جداً من أحد المجمعات الحديثة الكبيرة "آسيا مول"، وهذا الاسم يثير استغراباً لدي، فهناك فرق شاسع بين آسيا الماليزية، وآسيا القيرغيزية، وآسيا السعودية. فأيها أقرب لمعنى آسيا الحقيقية، وماذا تعني هذه الكلمة بالأصل؟ وما هي أهميتها؟ ولكن ربما أن قيرغيزستان تقع في "وسط" آسيا "الوسطى"، وأن "آسيا الوسطى هي المحور الذي يعتمد عليه مصير الامبراطوريات الكبرى" كما قال ماكيندر، فلعل لها الحق في أن تضع هذا الاسم لهذا المجمع.

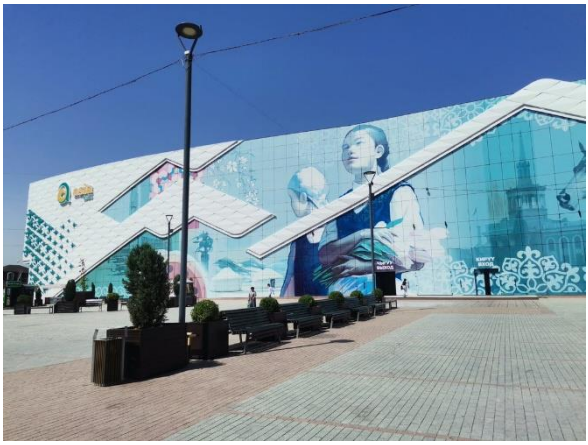

آسيا مول

وكان السكن الذي اختاره لنا الأمير هذه المرة بيتاً كاملاً، تشعر عند دخولك أنه "بيت جدتي" كما قال زياد، فهو بمطبخه وصالته وفرشه ودرجه وغرف نومه، يشابه بشكل كبير بيوتنا في التسعينات.

وقد علقوا على جدار الصالة لوحة مشاهير العالم، وهي لوحة مشهورة رسمها ثلاثة فنانين تايوانيين عام ٢٠٠٦، تحوي أكثر من مئة شخصية مشهورة، مثل غاندي وصدام .

فاحتل كل واحد منا مكاناً له، وكان نصيبي أن أكون مع أبي ناصر أيضاً هذه المرة.

وأعطونا فترة ساعة للاستراحة والصلاة، ومن أراد أن يزور المجمع زيارة خاطفة، ثم توجهنا إلى إلى مقهى أولو تو، وهو مطعم كبير فخم جداً، وهم يسمون المطاعم مقاهي أحياناً، وقد حجزوا لنا غرفة كبيرة من نوع الخمسة نجوم. ولها طاولة أرضية، وكان وصولنا قبيل المغرب، وكان هناك مصلى فسيح.

وبعد أن جلسنا بدأت الفاكهة بالورود، وكنا ننتظر الوجبة الرئيسية، وهي البيلاف أو الرز البخاري، وهو مزينٌ ببيض السمّان والثوم، ومليء بالجزر والحمص،،وأما اللحم فهو لذيذ جداً، ونسيت أهو لحم بقر أم ضأن، فلم تلهنا الأطباق الأولية عن الوجبة الرئيسية، والحمد لله على جزيل نعمه.

وأثناء جلوسنا شرّفنا الشيخ مراد، وهو شيخ مرشدنا أبو مسلم، فكان ذلك المجلس واسطة العقد ومسك الختام لهذه الرحلة في يومها قبل الأخير.

فحدثنا الشيخ مراد ابتداء عن تعلمه القرآن في الطفولة أيام الاتحاد السوفييتي في أوش، حيث كانت القيود شديدة على الصلاة والمساجد، فكان إذا دخل رمضان، يأتيهم معلم أوزبكي من فرغانة، ويهيء السكان منزلاً يجمعون فيه صبيانهم عند هذا الشيخ، ولا يخرجون إلا في نهاية الشهر، وأما المساجد، فقد كان لديهم محل للشاي في الدور الثاني من أحد المباني، له جلسات أرضية وعدد من الغرف، فإذا حضرت الصلاة تأكدوا من عدم وجود الشرطة، وأرخوا الستر وأغلقوا الباب وفتحوا الغرف على بعضها وأقاموا الصلاة.

ولما بلغ الشيخ مراد الستة عشرة عاماً، سقط الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١، فكان الناس متوجسون في البداية، ويخشون أن تكون خدعة من

السوفييت لتقييد المسلمين. وحمدوا الله على ذلك، ثم بدأوا بالعمل تدريجياً على ترميم مساجدهم القديمة، وبناء مساجد ومدارس جديدة.

وقد كان هناك دعم كبير من الحكومة السعودية ورابطة العالم الإسلامي ودول الخليج لهذه المساجد، وقد زارها معالي الشيخ ناصر العبودي رحمه الله بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بعدة أشهر وأورد ملاحظاته في كتاب رحلة إلى قيرغيزستان، وأوضح الدعم الذي قامت به الرابطة لهذا القطر.

وقد أخبرنا الشيخ مراد عن زيارة الشيخ ناصر تلك، وما لقيه من كرم وحفاوة القيرغيزيين، وما لقيه من عادات قيرغيزية، منها ما قاله أحد كبارهم: أن لذات الدنيا عندهم ثلاثة كلها تبدأ بحرف القاف، وهي (قميز) و (قاز) و (قز)، أما القميز فهو لبن الخيل، وأما القاز فهو لحم الأوز، وأما القز فالزوجة الشابة الجميلة.

وقد حصلت على نسخة من هذا الكتاب لاحقاً بصعوبة بالغة، فلم أجده على الإنترنت، ولم أجده في المكتبات الكبيرة والصغيرة، ولكن حينما زرت مدينة شقراء، وجدت مكتبة في المنطقة المركزية المجددة، لها عناية بمؤلفي المنطقة، الذين من ضمنهم الشيخ ناصر رحمه الله، فلم أستطع الحصول إلا على نسخة واحدة فقط.

وواصل الشيخ مراد حديثه عن رحلته العلمية، وحصوله على البعثة للدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وعن السنوات الجميلة التي قضاها هناك، وسرّه أن أبا عبدالملك من المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم. كما أخبرنا الشيخ عن الفترات التي قضاها في عنيزة لطلب العلم عند الشيخ ابن عثيمين رحمه الله. وأن عدد القيرغيزيين الذين يدرسون في

المملكة العربية السعودية عدد كبير ولله الحمد، وهم متواجدون في عدة مدن، ودائماً ما يحرص الشيخ مراد على زيارتهم في رحلاته للعمرة والحج مع الوفود القيرغيزية، التي تعتبر من أكثر الجاليات عدداً في العمرة والحج. ولله الحمد.

كما حدثنا الشيخ مراد عن تاريخ هذه البلاد، ومتى دخلها الإسلام، وعن الامتداد الواسع للأتراك، الذين يعتبر القيرغيزيون أحد أحفادهم، وعن التأثير الكبير لهذه القبائل التركية على مسارات التاريخ أثناء كفرهم وبعد إسلامهم، فهم أجداد المغول، اللذين اجتاحوا آسيا وأوروبا، ثم دخلوا بالإسلام، وكان من نسلهم حكام أفغانستان والهند، وهم يعتبرون أن سليمان شاه جد العثمانيين هو أحد أحفادهم. كما يفخرون بالعلماء المسلمين الذين أنجبتهم هذه الأقطار، مثل البخاري والنسائي الترمذي، وما تبعهم من العلماء الآخرين أمثال الخوارزمي.

وعن حالة المسلمين في قيرغيزستان أخبرنا الشيخ مراد أنها في نمو مطرد، ولكنه ليس بنفس سرعة النمو في الدول المجاورة، مثل أوزباكستان وطاجيكستان، فالقبضة الحديدية للاتحاد السوفييتي كان لها تأثير كبير، وعدم وجود الحواضر الكبيرة والقديمة المعروفة بالعلم الشرعي له تأثير أيضاً، كذلك كان لبعد قيرغيزستان عن مسارح بعض الأحداث الإسلامية مثل أفغانستان والقوقاز تأثير سلبي وإيجابي في نفس الوقت، حيث أنه ساهم في زيادة الوعي الإسلامي بين الناس من دون الدخول في استقطابات ومشاكل سياسية، بل وحروب أهلية مثل ما حدث في طاجيكستان.

لذلك كان النمو بطيئاً ولكنه كان مستمراً وشاملاً على كل البلاد، وكانت الحكومة والشعب على وفاق في ذلك النمو، على عكس ما حدث في أوزباكستان. وكان من نتائج ذلك الاستقرار أن الشباب القيرغيزي لم ينجرف للدعوات

المتطرفة، وكان واعياً بما يحاك ضـــده من مؤامرات لإيقاعه في فخ التطرف، مما أدى للحمة أكبر مع قيادته، مع دعم واسع لبناء المساجد ودور التحفيظ والمدارس الإســـلامية. حتى أصـــبحت تلك المدارس رافداً مهماً للكفاءات التي تســـاهم في الاقتصاد القيرغيزي، لا سيما قطاع السياحة، الذي أخبرنا الشيخ مراد أن المواد الدراسية لديهم يوجد منها مادة لتعليم قيادة السيارات، لكي يستطيع الخريج أن يعمل في نقل الســـياح. وهذا ما لاحظناه في كثير من الأحيان، خصـــوصـــاً إذا كان السائق مع سياحٍ عرب، فتجده يتكلم العربية بطلاقة، وغالباً ما يكون من خريجي تلك المدارس.

وأخبرنا الشـــيخ مراد عما يلاقونه من مصـــاعب عند إنشـــاء المدارس والمســـاجد، خصـــوصـــاً عند جمع الأموال لذلك، والتي لا تكلف شـــيئاً مقارنة بتكاليف البناء في بلادنا. وعما يسهله الله عز وجل في تيسير هذه الصعوبات.

وكنّا في تلك الجلسـة نسـأل الشـيخ وهو يجيب ويسـتطرد، ولاحظنا أننا لم ندعه يتعشّـى من كثرة الأســئلة. ولو كان المجال مفتوحاً لاســتمرينا مع حديثه الشـيّق حتى الصـباح، كما قال ابن زيدون: إن يطل بعدك ليلي فلكم،، بتّ أشـكو قصر الليل معك، ولكن لكل أجل كتاب. والحمد لله الرازق الوهاب.

وبعدها توجهنا إلى منزل الجدة، وجلسـنا جلسـة سـمر عائلية، تخللها لعبة البلوت المعروفة، التي كانت مليئة بالضـحك والقطعات من المتعلمين حديثاً مثل كبيرنا أبو عبدالملك، ولكن زياد لم يتحمل هذه القطعات فرمى الورق عليه وأنهى اللعبة بمثل ما ابتدأت به من حفاوة وتكريم، والحمد لله على أن الأخلاق ما زالت عالية في الليلة الأخيرة من الرحلة.

وكان موعدنا في صباح اليوم الأخير الساعة العاشرة صباحاً للانطلاق للسوق الشعبي.

فكان منا من استيقظ للفجر ولم ينم، ومنا من أكمل الشوط الثاني. وقد تناولنا الإفطار في مطعم للبيتزا في المجمع القريب. وتمشينا قليلاً ثم ركبنا الباص وتوجهنا للسوق الشعبي وهو سوق أوش، أكبر سوق شعبي في بيشكيك، فيه كل شيء تتوقعه ولا تتوقعه، ابتداءً من الملابس والأحذية، مروراً بالتوابل والأطعمة واللحوم، وانتهاء بالأجهزة الالكترونية، والجميل في ذلك أن مصادرها متنوعة، فمع أن البضائع الصينية لها انتشار واسع، إلا أنك تجد بعض الأمور الغربية، لا سيما البضائع الروسية، وأما البضائع المحلية فمنتشرة، وأعجبتنا الملابس المحلية الرجالية منها والنسائية، خصوصاً ما يلبس منها في الشتاء، فاشترينا منها ما ملأنا به حقائبنا من الهدايا، والسوق كبير ومتشعب جداً، ولا تدخله السيارات، فتجد ناحية منه خاصة باللحوم، وناحية أخرى للتوابل، وناحية للملابس الشعبية، ومساحة خاصة لبائعي الخبز القيرغيزي المزيّن، وجهة للملابس المستوردة، وهو مليء جداً

قصاب في سوق اوش

بالبشـــر، "فكأن الحج يقام أول مرّة" كما قال محمد أســـد، ففجأةً يواجهك بائع للبيلاف على عربة، وتارة يقاطعك حمالون للملابس يوصـــلونها إلى أحد المتاجر الداخلية، والمحليون فيه أكثر من الســـياح. فســـبحان الذي قدّر أرزاق البشـــر، وقرر للناس السـير في الأرض وابتغاء الرزق. ورضـي الله عن عبدالرحمن بن عوف حينما قال "دلوني على السـوق"وبعد أن تجمعنا بصـعوبة بسـبب تشـابه الممرات وتشـــعبها، جاءنا الباص، وكان ينتظر في مكان بعيد بســـبب عدم وجود مواقف بجانب السـوق، ووجد أسـامة بائعة للمشـمش بجانب موقف الباص، فأحضر لنا كيساً للتصبيرة وقت الطريق. ثم انطلقنا إلى شركة معروفة لبيع العسل وتصديره، واسـمها دكتور تيان شـانيا، وهي تحتوي على أنواع عديدة للبيع والتصـدير، كما تحتوي على معدات النحالين وحبوب اللقاح وغذاء الملكات. ويحتوي محلهم على عدد من الخزانات لأنواع متعددة من العســـل، إذا كنت ترغب بالشـــراء بالكيلو، كما يحتوي على عدة أنواع من الصـــناديق الجاهزة للهدايا، وفيها أربعة أو ســـتة أنواع، وكانت هي الخيار الأمثل لسهولة نقلها. ولكن العســـل الأفضـــل بلا منازع كان الذي اشترياه من النحالين في سوسمر.

بائع أقمشة في سوق اوش

ولما كان الزملاء يختارون في ذلك المحل، استأذنت للذهاب إلى المتحف الوطني القيرغيزي، ولم يكن في الشـــباب من محبي المتاحف غيري، فذهبت عن طريق تطبيق ياندكس، وهو المشابه لأوبر في الدول القريبة

من روسيا. على أن ألتقي بالمجموعة عند وقوفهم للغداء بعد ساعة تقريباً.

متحف التاريخ الوطني القرغيزي

وكان متحف التاريخ الوطني القيرغيزي هو أكبر متاحف البلاد، وقد أنشئ في بدايات الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٥ لأغراض البحث الأثري، وتوسع لكي يشمل التاريخ والعادات والتقاليد، والمبنى الحالي انشأ في الثمانينات، وفي مقدمته ساحة كبيرة وخلفه ساحة مشجرة صغيرة، وعلى جوانبه بعض النوافير والبحيرات الصغيرة. ووضعوا في وسط الساحة الكبيرة تمثالاً لفارسهم مناص، وقد كان مكانه تمثال للينين، ولكنهم نقلوه إلى الساحة الخلفية في مكان غير بارز. ويمكننا أن نعتبر قصة هذين التمثالين تجسيداً لواقع المتحف، بل لواقع الشعب القيرغيزي كاملاً، فهو شعبٌ فخورٌ بتاريخه كأمة قيرغيزية تركية مغولية مسلمة عريقة، وبنفس الوقت ينظر إلى الحقبة السوفييتية بشعور ممزوج ما بين القهر والفخر، أي ما بين القهر على الحرب التي تم شنها على أي مظاهر إسلامية، وبين الفخر في مساهمة القيرغيز في النهضة السوفييتية، مثل مساهمة القادة القيرغيز في رد هجمات النازيين على موسكو، واستبسالهم في ذلك. وهذا الشعور ينعكس على الحاضر والمستقبل، فهم مرحبون جداً بإخوانهم المسلمين، وبنفس الوقت متعاونون جداً مع الروس، وينظرون لهم كمصدر

للتقدم والتطور، وعلاقتهم بالروس القيرغيزيين جيدة جداً، فلم تحدث بينهم حروب ومناوشات بعد الاستقلال مثل ما حدث في الدول المجاورة.

متحف التاريخ الوطني القرغيزي

نعود إلى المتحف، كان الدخول برسوم رمزية، ويتكون المتحف من أربعة أدوار، وهو أنيق ونظيف ومرتب. وتبدأ الجولة كعادة المتاحف، بالتاريخ الجيلوجي للمنطقة، ثم بالحيوانات المنقرضة، ثم يعرضون تطور الإنسان من منظور داروين، فيعرضون نماذج للنياتدرال مثلاً، وهو ما يزعمون أنه المخلوق الذي بين القرد والإنسان. ثم العصر البرونزي والخناجر الحجرية وما شابهها. وهناك جناح خاص بالقبائل القيرغيزية، يشرحون فيه بدايات تلك القبائل في شمال منغوليا وسيبيريا، وتنقلاتهم وبروزهم على مسرح التاريخ، وسيطرة المغول التي امتدت من الصين شرقاً إلى وسط أوروبا غرباً، ثم يعرضون التحركات والحروب والاتفاقيات التي تمت

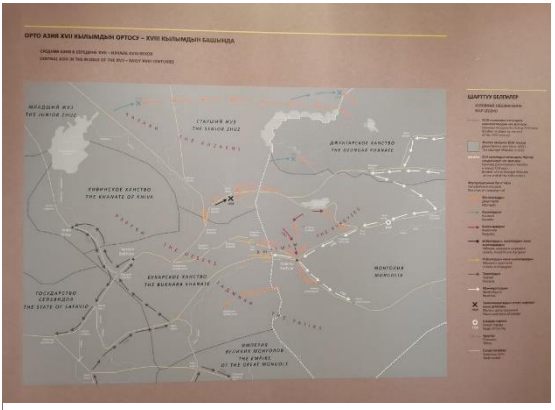

خريطة للقبائل التركية

في القرون الثلاثة الأخيرة بين القبائل التركية وما جاورها، وهم الكازاخ، والأوزبك، والقيرغيز، والطاجيك، والفرس والمنشوريين والزونغار، حتى تكونت الدول الحديثة.

خيمة قرغيزية

كما يعرض المتحف الحياة البدوية القيرغيزية التي يفخرون بها، منها خيمة يورت كاملة، ومجسم لحصانين عليهما عدة كاملة، ولاحظت أن هناك نوعان من السروج، واحدٌ للرجال وواحدٌ للنساء، ويختلف فيهما مقدمة السرج، ويبدو أن السروج ذات المقبض التي ركبناها كانت أقرب لسروج النساء، والله المستعان. و تشمل المعروضات البدوية على الأنوال وأدوات صناعة النسيج. كما تشمل الطبول والطنابير.

ثم يمر المعرض على جزءٍ مقتضب جداً حول الحقبة الإسلامية، لا يقارن بما قبلها ولا بما بعدها من حيث المساحة، احتوى على بعض الكتب والشروحات، ومنها كتاب ديوان لغات الترك لمحمد كاشغري-بارسخاني، وهو عالم تركي من القرن الحادي عشر الميلادي ولد بجوار بحيرة إيسك كول. ومنها ملحمة مناص، والملاحم المشابهة لها، وهي مكتوبة بأحرف عربية. وهذا شيء ملاحظ في العديد من الدول الإسلامية، مثل تركيا وأندونيسيا وماليزيا، أنهم كانو يكتبون لغاتهم بالأحرف العربية. وهذا له تأثير كبير على تسهيل تعلمهم للقرآن، وتسهيل تعلم تلك اللغات على العرب، وهذا ما لاحظته عندما شاركت خلال دراستي في ماليزيا في مسابقة للخطابة، وكانت الخطبة مكتوبة باللغة الماليزية المعتادة بأحرفها اللاتينية، فترجمت المعلمة تلك الخطبة إلى الأحرف الجاويّة العربية، فكانت قراءتها وحفظها أسهل بكثير من سابقتها. والحمد لله الذي أنزل القرآن { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ } [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ١٩٥].

مخطوطات بالأحرف العربية

وفي آخر الفترة الإسلامية والبدوية، عرضوا بعض المشاهد لانفتاح القيرغيز على البلدان الأخرى، منها تبادل سفراء مع مملكة كينق الصينية عام ١٧٥٨، ومع روسيا عام ١٧٨٥.

لوحة تبادل السفراء

وكما عرفنا مقاومة المصريين للفرنسيين، ومقاومة الهنود للإنجليز، ومقاومة الأندونيسيين للهولنديين، فقد عرض المتحف كيف قاوم القيرغيز الإمبراطورية الروسية منتصف القرن التاسع عشر، وكان ذلك عبر خانية خوقند، وكانت حدودها مختلفة عن الوقت الحالي، وقد قاوموا بكل شجاعة واستبسال حتى انهزموا أمام الروس عام ١٨٧٦. وقد عرضوا قصة مشهورة لامرأة أسمها كرمنجان دتكا، كانت زوجة لقائد في خانية خوقند، ولما أغتيل تم اختيارها لتخلفه كقائدة لمنطقة آلاي، التي هي جنوب مدينة أوش، وكيف أنها حاولت مقاومة الروس ولكنها أدركت عدم جدوى المقاومة فاستسلمت، و عرضوا زيارة

بعض الضباط الروس لها وتقدير الامبراطور لهذه المرأة، وقد أنتجوا فيلماً سينمائياً عن هذه المرأة أسموه "ملكة الجبال" وحاز على مشاركات عالمية.

لوحة كرمنجان دتكا

ثم ينتقل المتحف إلى الحقبة الروسية ثم السوفييتية، ويعرض المفكرين والقادة القيرغيزين الذين ساهموا في نهضة الاتحاد السوفييتي. وبما أني وعيت على العالم وهو بقطبية واحدة كما يقولون، ولم أشهد الفترات التي كانت الشيوعية تستقطب وتستهوي فيها أبناء جلدتنا، والتي كان النقاش فيها يحتدم بين الأخ وأخيه، فإن هذا القسم أفهمني جزءً من النفس السائد وقت ذروة الاشتراكية، وكيف أن الفرد يجب أن يعمل للجماعة، وأن كل شيء مشترك بين

الناس، وعن أهمية الصـــناعة، وعمل المرأة، وكيف شـــارك القيرغيزيون في المزارع الجماعية، وفي الحرب العالمية الثانية، وهم يســـمونها "الحرب الوطنية العظمى"، وكيف أن المصـــانع والمزارع والمدارس كانت تعمل بطاقتها القصـــوى كمركز دعم خلفي للجبهات الأمامية، وقد علمت لاحقاً أن أحد مدارس الطيران العســـكري الرئيسية للسوفييت تقع قرب بيشكيك، وهذا يعطينا لمحة قوية عن الزخم الذي كانت تشـكله الفكرة الاشـتراكية في عالمنا العربي، وفي بقية الأقطار الإسـلامية، لا سيما هذا القطر الذي يواجه هذه الأفكار ليل نهار. وهذا يدعو للتعجب كيف أن تلك الأفكار القوية والقبضة الحديدية، تهاوت بلمح البصر، فسبحان الله القائل في محكم تنزيله

{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨) }

[سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٢٦-٢٨]

بعض الصور من المتحف :

ولكنهم وضعوا بين جنبات الجانب السوفييتي من المتحف، مكاناً خاصاً لما مارسه السوفييت من قمع وقهر لمن لا يوافق هواهم، وجسّدوا ذلك بغرفة على شكل زنزانة فيها سرير معدني صلب، وكرسيّ خشبي، وعرضوا صوراً لبعض السجناء القيرغيزيين، ومنهم المفكرون والشيوخ المسلمون والروائيون، كما عرضوا بعض الكتب التي كان السوفييت يمنعونها، ومنها ملحمة مناص، كما أوضحوا أنه خلال التطور الاجتماعي-الاقتصادي من عام ١٩٢٠-١٩٤٠، تم نفي جميع كبراء القبائل القيرغيزية، وجميع ملّاك المزارع الأغنياء إلى أوكرانيا وسيبيريا وشمال القوقاز. كما علمنا من كتاب الشيخ العبودي رحمه الله، عن وجود قرية صغيرة من الداغستانيين بالقرب من مطار

بيشكيك، قام السوفييت بتهجيرهم من داغستان إلى هناك.

ثم ينتقل المعرض إلى استقلال دولة قيرغيزستان الحديثة ومرسوم تأسيسها، وشرح معنى علمها الذي يقتبس من خيمة اليورت أعمدتها المطوية، ثم يقوم بشرح ما توصلت له من تطور في مجالات الطب والتعليم والصناعة، والأدب والفن والرواية، وعن طموحاتها ومشاريعها المستقبلية، وقد علمنا من الشيخ مراد عن بعض الإشكاليات الموجودة في قطاع التعدين، حيث أن الأراضي التي تستخرج منها المعادن النادرة في معظمها مملوكة بالكامل لدول خارجية، فهم لا يحصلون إلا على فتات ما تنتج أرضهم من المعادن ولا يتحكمون فيها تحكماً كاملاً.

وفي نهاية المتحف وضعوا معرضاً لطيفاً لبعض الهدايا التذكارية التي جاءت من جهاتٍ رسمية خارجية، كان منها دلة عربية ودرع مكتوب لافتتاح البنك الإسلامي للتنمية عام ١٤١٥هـ، ونموذج مصغر لباب الكعبة المشرفة، جميعها مهداة من المملكة العربية السعودية، ومصحف مغلف بصندوق رخامي عليه شكل قبة الصخرة مهدى من فلسطين،

وبعض الهدايا المتنوعة من مختلف دول العالم، كما وضعوا بعده صوراً متعددة لرئيس البلاد مع عدد من رؤساء العالم، يتضح فيها رغبة هذه الدولة بالاستقرار والسلام والتوائم مع جيرانها، كما وضعوا صوراً لبعض الاحتفالات التي يقيمونها احتفاءً ببداوتهم، من ضمنها صور للمكان الذي ذهبنا إليه شمال بحيرة إيسك كول، واتضح أن ذلك الاحتفال جمعوا فيه بدواً من مختلف دول العالم، بما فيها الدول الاسكندنافية.

وبعد تلك الجولة الممتعة في ذلك المتحف، علمت أن الشباب ذهبوا إلى مطعم اسمه نافات، فحجزت ياندكساً وذهبت إلى ذلك المطعم، وبحثت عن الشباب فلم أجدهم، ولما كلمتهم قالوا أنهم في زاوية المطعم ولم أجدهم، فإذا بأن المطعم له فرعين، فحجزت ياندكساً آخر وجئتهم على آخر جلستهم، فأكلت غدائي ولحقتهم مع أبي مسلم بالسيكويا.

ولما عدنا إلى الفلة، كان الوقت المتبقي وقتاً مفتوحاً لتجهيز الأغراض، وحزم الحقائب والتسوق من السوق القريب.

ودائماً ما تكون هذه الأوقات من أصعب الأوقات التي تمر على المرء، فما بين تحسر على سرعة انقضاء هذه الرحلة، واقتراب الافتراق عن الصحبة، وهذا الشعور كان يراود البعض منذ أيام، كما قال المتنبي:

ولقد بكيت على الشباب ولمّتي،،، مسودةٌ ولماء وجهي وجهي رونقُ،،
أسفاً عليه قبل يوم رحيله،،، حتى لكدت بماء جفني أغرقُ،،،

العودة

ما بين شعور آخر بالرغبة بالعودة إلى الديار، خصوصاً بعد هذه الغربة أو لعلها الشرقة التي ابتعد فيها المرء عن أهله وخلانه،، فتتذكر مالك بن الريب وهو يرثي نفسه، ويذكر الغضا لو دنا الغضا،، خصوصاً أننا وراء مروٍ التي توفي عندها رحمه الله. أو كما قال ابن الدمينة: أَلا يا صَبا نَجدٍ لَقَد هِجتُ مِن نَجدِ،، فَهَيَّجَ لي مَسراكَ وَجداً عَلى وَجدِ.

ولكن هذه سنة سنها الله عز وجل، وهي من الثمانية التي قال عنها أبو الزلازل،، ثمانية قام الوجود بها فهل ... ترى من محيص للورى عن ثمانيه،،، سرور وحزن واجتماع وفرقة ... وعسر ويسر ثم سقم وعافيه،،، بهنّ انقضت أعمار أولاد آدم ... فهل من رأى أحوالهم متساويه.

وقد اكتشفنا أننا أكثرنا من الاحتياط في الزهاب، من رز وبهار وقهوة وشاي، فأعطيناها أبو مسلم مشكوراً.

وكانت مهمة للأمير ونائبه حساب التكاليف النهائية، ومحاسبة الفنادق والمطاعم والمشارب والتنقل وكافة التكاليف، وكنّا قد أعطينا دفعة مسبقة للأمير حوالي ثلاثة آلاف ريال للشخص، فلم تزد عنها شيئاً ولله الحمد، بل كادت تنقص لولا بعض المشتريات الخاصة. وهذا مما بارك الله لنا في هذه الرحلة وهذه الصحبة، فمع ما شهدناه من أكواخ فخمة، وخيام دافئة، وتنقلات طويلة، وخيول وفعاليات متنوعة، وذبائح مشوية، وصحبة طيبة لمدة اسبوعين إلا يومين، تعتبر هذه الرحلة من أقل الرحلات التي شهدتها تكلفة، والحمد الله على تيسيره وتوفيقه.

وقد كانت طائرتنا تقلع حوالي الساعة السادسة صباحاً، فخرجنا مبكرين بعد غفوة خفيفة.

ولاحظنا في المطار العديد من المجموعات السياحية من الشباب الخليجيين، يساعدهم مرشدون قيرغيزيون كأنهم إخوان أبو مسلم.

ولما أدخلنا حقائبنا وعزمنا أمرنا، ودعنا أبا مسلم، وكان الوداع سريعاً وبه غصّة، وذلك ما كنا نخشاه، كما قال القشيري،، أَتَجزَع وَالحَيان لَم يَتَفَرَّقا،،، فَكَيفَ إِذا داعى التَفَرُّق أَسمَعا. والحمد لله على كل حال، ونسأل الله أن يجمعنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وأن يعيد علينا لقاءات أخرى ونحن في صحة وعافية إنه على ذلك قدير.

وكان عدد الركاب كبيراً، من جنسيات مختلفة، فيهم الهنود والأوروبيون والعرب والقيرغيزيون، ولاحظنا جماعة من الصبيان يبدون في أواخر المرحلة الابتدائية، يقودهم معلم لهم، يبدو أنهم ذاهبون إلى برنامج صيفي في الأزهر الشريف بمصر. وكانت مسارات الجوازات عديدة ومزدحمة، وبعد ان اجتزناها انتظرنا في صالة الانتظار، التي لم تكن كبيرة، وكان فيها محلات ومقاه قليلة، وصلينا الفجر في مصلى مفروش ولكنه غير رسمي، أي ليس له لوحات وغرفة مخصصة، واستضافني أبو عبدالملك مع أبو أسامة في صالة رجال الأعمال، ولما حان وقت الرحلة ركبنا الطائرة، وكان ورائي طيار قيرغيزي اسمه منصور، يعمل في أحد شركات الشحن الجوي، وأقلعت الطائرة على وقت شروق الشمس. وهنا أقتبس ما قاله الشيخ ناصر العبودي رحمه الله في خاتمة كتابه "حديث قرغيزستان :

"ارتفعت الطائرة فبدت الحقول الخضر في ريف هذه البلاد المسلمة التي لو وجدت الزراعة فيها آلات حديثة، حوافز كافية لتضاعف الإنتاج، بل لأصبح مورداً مهماً للدولة، وظهرت مناقع المياه المتخلفة من الأمطار التي هطلت في الأيام الماضية، ورأينا نهراً صغيراً ربما كان هو نهر (علم الدين) الذي تقدمت الإشارة إليه.

وبدت جبال (تيان شان) وكأنما أشابتها السنون، ولكنه شيب سيغسله الصيف بصابون هو الشمس الساطعة والريح الدافئة.

ثم ارتفعت الطائرة فوق السحاب إلا أنه لم يكن سحاباً مطبقاً فكنا نرى من خلاله تلك الجبال الشيب منقادة في امتدادها الذي يكاد يشمل كل بلاد تركستان.

وحتى السحاب لم يستطع أن يعلوا على كل تلك الجبال الشم فبدت قممها المجللة بالثلوج من فوقع كأنما هي على بعد الخيام البيض المنصوبة في صحرائنا الجرداء، أو كأنها معسكرات الخيال المقامة فوق الرمال.

وبين الخيال الذي آثاره منظر هذه القمم البيض العاتية كان البصر يتخيل وهو ينظر داخل الطائرة إلى هؤلاء المستعمرين الروس الذين احتلّوا هذه البلاد بسفك الدماء، واستباحة الحرمات وهم يغادرونها الآن من دون حرب أو ضرب بل زلزلوا زلزالاً شديداً يجللهم الخوف من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجدهم شاكرين.

... بعد ساعة وعشر دقائق من الطيران، صارت الطائرة تحلّق فوق منطقة طشقند

..... وبهذا انتهى حديث قيرغيزستان، والله المستعان على كل شأن..... "

انتهى كلام الشيخ ناصر العبودي رحمه الله
وانتهى كلام العبد الفقير إلى عفو ربه، رحمني ورحمكم الله.

أحمد بن نايف السديري
يوم الحج الأكبر
١٠ ذو الحجة ١٤٤٤هـ
حائل، المملكة العربية السعودية

الفهرس :

عقد العزم..... 5

المطار السوفييتي..... 6

صعود الحبال..... 10

معانقة السحب..... 13

فوق ظهور السابحات في بلد الخيل..... 17

التخييم في سوسمر..... 19

التغريزة..... 23

شاطئ البحيرة..... 26

كاراكول..... 30

بشكيك..... 45

العودة..... 64